



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة



القسم: الكتاب والسنة

المستوى: السنة الثالثة ليسانس

التخصص: الكتاب والسنة

مطبوعة بيداغوجية في مادة:

الحديث الموضوعي

من إعداد: الدكتور: نور الدين بن يريح

السداسي السادس

السنة الجامعية 2021/2020م

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن من دلائل عظمة هذا الدين وخلود رسالته، أن أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، وجعل سنته الشريفة و سيرته الطاهرة منهج حياة المسلمين تعطي الصورة العملية لهذا النبي العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه... ولما كانت الدراسات والعلوم المتعلقة بالسنة النبوية كثيرة ومتعددة، فكان منها ما يتعلق بمعرفة الصحيح من الضعيف والمقبول من المردود، ومنها ما يتعلق بمعرفة كيفية سماع الحديث وتحمله وصفة ضبطه، ومنها ما يتعلق بمعرفة آداب المحدث وطالب الحديث، وما يتعلق بمعرفة الرجال و حياة الرواة، و منها ما يتعلق بشرح السنة وبيان مدلولها واستنباط الأحكام منها... كل ذلك خدمة للسنة الشريفة وبيان لعظم مكانتها وتأتي الدراسة الموضوعية للسنة النبوية كواحدة من الدراسات الحديثية التي تساهم في بيان مكانة السنة النبوية، إذ بهذه الدراسة يتم تسليط الضوء على مواضيع شتى ودراستها دراسة تأصيلية يكون المرجع فيها بالأساس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قاله شراح السنة وأهل العلم في ذلك الموضوع، كل ذلك من خلال جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد .

وقد وقع الإختيار على دراسة المواضيع الآتية:

(1) القضاء والقدر من خلال السنة النبوية:

وتناول هذا الموضوع من خلال الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فيه، سيعطي الطالب الصورة المتكاملة لمعنى القضاء والقدر وما يترتب عليه، ولا يخفى ما لأهمية هذا الموضوع من قيمة في إيمان المسلم وسلامته معتقده.

(2) حقيقة الكفر من خلال السنة . دراسة موضوعية . :

ولفظ "الكفر" قد ورد كثيرا في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ودراسة هذا الموضوع في ضوء السنة النبوية سيمكن الطالب من تبين حقيقة الكفر وأقسامه وما يترتب عليه.

3) فضل الدعوة الى الله من خلال الأحاديث النبوية:

وكان القصد من دراسة هذا الموضوع إشعار المسلم المعاصر بدوره في هذا العالم الذي يموج بالعقائد و الأفكار المخالفة للإسلام و كيف يجب أن يستشعر مسؤوليته في الدعوة الى الله و إقامة الحجة على الآخرين ونشر تعاليم الإسلام بينهم تحقيقا للشهادة المطلوبة شرعا منا (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) سورة البقرة - الآية 143.

ولما كان المدعوون أصنافا ومراتب فقد تم تسليط الضوء على منهج الدعوة لبعض هذه الأصناف.

رابعا: سمو الأخلاق الإسلامية في ضوء السنة النبوية:

و هو موضوع يسلط الضوء على سمو أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع غيره من غير المسلمين و كيف كان ذلك صورة مشرقة في حياته، وهي الصورة التي يحتاجها المسلمون المعاصرون في تعاملهم مع من حولهم.

خامسا : حرمة المسلمين في ضوء السنة النبوية:

و ذلك ببيان ضوابط التعامل بين المسلمين وبيان حقوق بعضهم مع بعض حماية لهم من أي منزلق يشين صفاء علاقة المسلمين ووحدهم، كل ذلك من خلال جمع الأحاديث الواردة في هذه المواضيع و بيان ما قاله أهل العلم و شراح السنة فيها. والله نسأل السداد والتوفيق لكل طالب علم وأن ينفع به أمته ودينه.

أستاذ المادة الدكتور: نور الدين بن يربح

أولا . القضاء والقدر في ضوء السنة النبوية

المبحث الأول: تعريف القضاء و القدر

يعد الإيمان بالقضاء والقدر أحد أهم المسائل التي تهم المسلم في معتقده، وذلك لارتباطه مباشرة بمسألة الإيمان بالله تعالى من حيث المعرفة الصحيحة بذات الله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته الكاملة.

والقضاء في اللغة: الإحكام والإتقان وإتمام الأمر قال ابن فارس: (القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه لجهته).⁽¹⁾

وقد ورد لفظ القضاء في القرآن الكريم بمعان كثيرة:

فورد بمعنى الأمر ومنه قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) - الإسراء 23.

قال قتادة: (أي أمر ربك ألا تعبدوا إلا إياه، فهذا قضاء الله تعالى)⁽²⁾

وورد بمعنى "الإنهاء"، ومنه قوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ) - الحجر 66: أي تقدمنا وأنهينا⁽³⁾

وورد بمعنى " الفراغ"⁽⁴⁾ ومنه قوله تعالى: (فَصَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) فصلت 12، قال الطبري: (فرغ من خلقهن سبع سماوات في يومين)⁽⁵⁾

كما ورد لفظ القضاء بمعنى (الأداء)⁽⁶⁾ ، و(الإعلام)⁽⁷⁾ و(الموت)⁽⁸⁾ وغيرها...

(1) مقاييس اللغة (99/5)

(2) تفسير الطبري (413/17)

(3) ينظر تفسير ابن كثير (575/2)

(4) ينظر: الصحاح للجوهري (2464/6)

(5) تفسير الطبري (440/21)

(6) الصحاح (2464/6)

(7) لسان العرب (187/15)

(8) الصحاح (2463/6)

وأما القدر لغة فهو مصدر من الفعل "قدر" نقول: (قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أقدره بالكسر، إذا أحطت بمقداره) (1). فهو يدل على الإحاطة بمقادير الأمور، كما يدل على القضاء والحكم ومبلغ الشيء، (والتقدير: التروية والتفكير في تسوية الأمر) (2)

وأما القضاء والقدر شرعا، فقد قال الشيخ محمد خليل الهراس: (والمراد به في لسان الشرع: أن الله عز وجل علم مقادير الأشياء وأزمانها أزلا، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما عمله منها، وأنه كتبها في اللوح المحفوظ قبل إحداثها) (3)

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى عدم التفريق بين القضاء والقدر، فجعلوا كل واحد منهما في معنى الآخر، إذ كما أنه لا فرق بينهما في اللغة، فإنه لا دليل على التفريق بينهما في الشرع (4)، بينما ذهب البعض إلى التفريق بينهما. وقد نقل الحافظ ابن حجر عن بعض أهل العلم أنهم قالوا: (القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله). (5)

المبحث الثاني: الأحاديث الواردة في القضاء و القدر وأقوال أهل العلم في شرحها

تضافرت النصوص والأحاديث النبوية الشريفة المرشدة إلى مسألة القضاء والقدر.

قال الإمام النووي: (وقد تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى) (6)
وقال الحافظ ابن حجر: (ومذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتدبير الله تعالى) (7)

(1) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني (118/1)

(2) القاموس المحيط للفيروز آبادي (591)

(3) شرح العقيدة الواسطية (65)

(4) القضاء والقدر للدكتور عبد الرحمان المحمود (40-41)

(5) فتح الباري (486/11)

(6) شرح النووي على صحيح مسلم (155/1).

(7) فتح الباري (287 7/11)

روى الإمام الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ) (1)

قال المباركفوري: ((حتى يؤمن بشره) أي بأن جميع الأمور الكائنة خيرا وشرها حلوها ومرها بقضائه وقدره وإرادته وأمره، وإنه ليس لهم فيها إلا مجرد الكسب ومباشرة الفعل (حتى يعلم أن ما أصابه) من النعمة والبلية والطاعة والمعصية مما قدر الله له وعليه (لم يكن ليخطئه) أي ليجاوزه (وأن ما أخطأه) من الخير والشر (لم يكن ليصيبه) وهذا وضع موضع المحال، كأنه قيل: محال أن يخطئه... وفيه حث على التوكل والرضا، ونفى الحول والقوة وملازمة القناعة، والصبر على المصائب) (2)

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّيَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَيُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ) (3)

(فالمراد بالحديث نفي أصل الإيمان عن من لم يؤمن بهذه الأربع: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمد رسول الله، ويؤمن بالموت، أي فناء الدنيا، أو المراد: اعتقاد أن الموت يحصل بأمر الله لا بفساد المزاج كما يقول الطبائعيون، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر، وأن كل ما جرى بقدر الله تعالى وفضائله) (4)

وتأمل هذا الإرشاد النبوي لمسألة القدر، وهو ما أورده الإمام البخاري

(1) سنن الترمذي - كتاب القدر - باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره (2144). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون. وعبد الله بن ميمون منكر الحديث، ولكن الحديث له شواهد تؤيده. وقد صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم 743.

(2) تحفة الأحوذى (201/3).

(3) رواه الترمذي مباشرة بعد الحديث السابق. قال المباركفوري في تحفة الأحوذى: (وحديث على هذا رجاله رجال الصحيح، وأخرجه أيضا أحمد وابن ماجه والحاكم). تحفة الأحوذى (201/3).

(4) تحفة الأحوذى (201/3).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات:

فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها (1)

قال **الحافظ ابن حجر** رحمه الله: (المراد بالنطفة: المنى، وأصله الماء الصافي القليل، والأصل في ذلك أن ماء الرجل إذا لاقى ماء المرأة بالجماع، وأراد الله أن يخلق من ذلك جنيناً هياً أسباب ذلك. قال ابن الأثير في النهاية: يجوز أن يريد بالجمع مكث النطفة في الرحم، أي تمكث النطفة أربعين يوماً تخمر فيه، حتى تنتهي للتصوير، ثم تخلق بعد ذلك، ثم يكون علقة: يكون هنا بمعنى يصير، ومعناه أنها تكون تملك الصفة مدة الأربعين ثم تنقلب إلى الصفة التي تليها: العلقة: الدم الجامد الغليظ، يسمى بذلك لللطوبة التي فيه وتعلقه بما مر به. المضغة: قطعة اللحم، سميت بذلك لأنها قدر ما يمضغه الماضغ. والمراد من كتابة الرزق: تقديره قليلاً أو كثيراً، وصفته: حلالاً أو حراماً. وبالأجل: هل هو طويل أو قصير. وبالعمل: صالح أو فاسد. ومعنى: شقي أم سعيد: أن الملك يكتب إحدى الكلمتين، كأن يكتب مثلاً: أجل هذا الجنين كذا ورزقه كذا وعمله كذا، وهو شقي باعتبار ما يختم له، سعيد باعتبار ما يختم له، كما دل عليه الخبر.

وفي الحديث حث على القناعة والزجر الشديد عن الحرص لأن الرزق إذا كان فسيفد تقديره، ولم يعن التعني في طلبه. وإنما شرع الاكتساب لأنه من جملة الأسباب التي اقتضتها الحكمة في دار الدنيا (2)

(1) - صحيح البخاري - كتاب القدر - باب في القدر (2433)

صحيح مسلم كتاب القدر . باب كيفية

خلق الانسان في بطن أمه (2036)

(2) - فتح الباري (479/11).

وتأكيدا لما قاله الحافظ ابن حجر في ختام شرحه لهذا الحديث بقوله: (ولم يعن التغني في طلبه، وإنما شرع الاكتساب لأنه من جملة الأسباب التي اقتضتها الحكمة في دار الدنيا) نورد هذا الحديث فتأمله:

روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ)، قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟»، قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَيْسَرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيَيْسَرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ [:فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى] (1)

قال الحافظ بن حجر: (وهذا الحديث أصل لأهل السنة في أن السعادة والشقاء بتقدير الله... واستبدل به على إمكان معرفة الشقي ضد السعيد في الدنيا كمن اشتهر له لسان صدق وعكسه، لأن العمل أمانة على الجزاء... قال الخطابي: لما أخبر صلى الله عليه وسلم عن سبق الكائنات رام من تمسك بالقدر أن يتخذ حجة في ترك العمل، فأعلمهم أن هنا أمرين لا يبطل أحدهما بالآخر، باطن وهو العلة الموجبة في حكم الربوبية، وظاهر: وهو العلامة اللازمة في حق العبودية.. فبين لهم أن كلا ميسر لها خلق له وأن عمله في العاجل دليل على مصيره في الآجل، ولذلك مثل بالآيات، ونظر ذلك الرزق مع الأمر بالكسب، والأجل مع الإذن بالمعالجة(2)

وما ورد في الحديث وأقوال الشراح دليل على عدم جواز ترك العمل احتجاجا بالقدر، إذ من الناس من يحتج بالقدر على ترك العمل فتجد الواحد منهم عندما يدعى إلى الصلاة أو الصيام وقراءة القرآن يقول: لو شاء الله لي أن أعمل هذا عملته، كما يحتجون به على ما يوقعونه بالناس من الظلم والفساد على أن هذه إرادة الله ومشيئته وليس لنا حيلة في ذلك !

(1) - صحيح البخاري كتاب التفسير . باب قوله (فأما من أعطى واتقى)

(2) - فتح الباري (26/11)

إن المنهج الذي عليه فقه علمائنا عن ربنا ونبينا أنه يجب علينا أن نؤمن بالقدر، ولكن لا يجوز لنا أن نحتج به على ترك العمل، كما لا يجوز لنا أن نحتج به على مخالفتنا للشرع⁽¹⁾

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (العبد له في المقدر حالان: حال قبل القدر وحال بعده.

فعليه قبل المقدر أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه، فإذا قدر المقدر بغير فعله فعليه أن يصبر عليه ويرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك، وإن كان ذنبا. استغفر إليه من ذلك.

وله في المأمور حالان.

حال قبل الفعل: وهو العزم على الإمتثال والاستعانة بالله على ذلك

وحال بعد الفعل: وهو الإستغفار ضد التقصير والشكر لله على ما أنعم به من الخير⁽²⁾

ودفعا لأي شبهة وسدا لأي ثغرة قد يلج الشيطان منها فيفسد على المسلم اعتقاده، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)⁽³⁾

قال الإمام النووي: (قال القاضي عياض: قال بعض العلماء: هذا النهي إنما هو لمن قال قاله معتقدا ذلك حتما، وأنه لو فعل ذلك لم تصبه قطعا، فأما من رد ذلك حتما، وأنه لو فعل ذلك لم تصبه قطعا، فأما من رد ذلك إلى مشيئة الله تعالى بأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله، فليس من هذا)⁽⁴⁾

(1) - القضاء والقدر لعمر سليمان الأشقر - يتصرف - 89

(2) - فتح الباري (76/8)

(3) - رواه مسلم في صحيحه هن أبي هريرة برقم (2664)

كتاب القدر . باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتقويض المقادير له.

(4) - شرح النووي على مسلم (287/1)

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستقراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كما حرصه محمودا وكما له كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصا ، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص، فإنه من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فتأخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيتته وتوفيقه، أمره أن يستعين به، ليجمع له مقام، إياك نعبد وإياك نستعين، فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله، ولا يتم إلا بمعونته، فأمره بأن يعبده وأن يستعين به.

ثم قال: (ولا تعجز) فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز. فإن فاته ما لم يقدر له: فله حالتان: حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان، فليقيه العجز إلى (لو)، ولا فائدة في لو ههنا بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي: النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفت ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشية الرب النافذة...

فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدا، بل هو أشد شيء له ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام والعبودية ظاهرا وباطنا، في حالتها حصول المطلوب وعدمه، بالله التوفيق (1)

وعليه ندرك أن الإيمان بالقضاء والقدر هو ركن ركين في عقيدة المسلم، وأن فوائد الإيمان به أكثر من أن تحصى، وهذه بعضها:

* ألا تحزن حين فوات شيء من الدنيا ومصالحها، إذ أن ما لم يقدر ينقطع الطمع فيه والحزن والأسى عليه.

(1) - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (18-19)

* الرضا واليقين بالعرض قال تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) التغابن 11

قال ابن كثير في تفسيرها: "أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه وعوضه عما فاتته من الدنيا هدى في قلبه، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه.

ففي صحيح مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَتْ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَتْ خَيْرًا لَهُ) (1)

روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ سورة البقرة آية 156 ، اللَّهُمَّ أَجْرِنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا " ، قَالَتْ : فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ ، قُلْتُ : أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...) (2)

عدم الخوف من ضر البشر ، روى الترمذي في سننه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (... وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رَفَعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَتِ الصُّحُفُ) (3)

(1) - تفسير ابن كثير (431/13). والحديث في صحيح مسلم (2999) ، كتاب الزهد والرقائق . باب المؤمن أمره كله خير .

(2) - صحيح مسلم، (918)، كتاب الجنائز . باب يقال عند الجنائز .

(3) - سنن الترمذي (حديث رقم 2516) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

* أن الخيرة فيما اختاره الله، فقد يقدر على المؤمن مصيبة فيحزن، ولا يدري كم من المصالح العظيمة التي تحصل له بسببها وكم صرف عنه من الشرور وصدق الله إذ يقول: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) البقرة 216

قال ابن عون: (ارض بقضاء الله من عسر ويسر، فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء) (1)

* النجاة من النار، فقد روى أبو داود في سننه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ أَنْفَقْتَ جَبَلٍ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ لَدَخَلْتَ النَّارَ...) (2)

(1) - مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي (147/3) لزين الدين عبد الرحمان بن أحمد بن رجب الحنبلي . تحقيق أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني.

(2) - سنن أبي داود (رقم 4699)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (890/3) برقم (3982)

ثانيا . حقيقة الكفر في ضوء السنة النبوية

المبحث الأول: تعريف الكفر لغة واصطلاحا

والكفر في اللغة يحمل معنى الستر والتغطية، قال ابن فارس: (الكاف والفاء والراء، أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية) (1)

وقال ابن الأثير: (أصل الكفر تغطية الشيء تغطية تستهلكه) (2)

وقد جاء إطلاق الكفر في اللغة على عدة معان،

. فأطلق على المزارع كافرا، قال تعالى: (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ) (3)

— وسميت الكفارات بهذا الاسم لأنها تكفر الذنوب أي تسترهما مثل كفارة الإيمان وكفارة الظهار (4)

وأما تعريف الكفر في الشرع فقد ورد تعريفه في كلام العلماء بعدة ألفاظ، فقد نقل الأزهري عن الليث في تعريفه أنه (نقض الإيمان) (5)

وقال الراغب الأصفهاني: (الكافر على الإطلاق متعارف فيمن جحد الوجدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها) (6)

وقال ابن حزم في تعريف الكفر: (جحد الربوبية وجحد نبوة النبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيئا مما أتى به الرسول الله صلى الله عليه وسلم، مما صح عند جاحدة وينقل الكافة، أو عمل شيئا قام البرهان بأن العمل به كفرا) (7)

(1) - معجم مقاييس اللغة (191/5)

(2) - النهاية (807)

(3) - أنظر تهذيب اللغة للأزهري (3162/4)

(4) - المصدر نفسه (3163/4)

(5) - تهذيب اللغة (3160/4)

(6) - المفردات (715)

(7) - الفصل في الملل والأهواء والنحل (253/3)

وقال القرافي: (أصل الكفر إنما هو انتهاك خاص لحرمة الربوبية، إما الجهل بوجود الصانع وصفاته العلا، ويكون الكفر بالفعل كرمي المصحف في القاذورات، أو السجود للصنم، أو التردد للكنايس في أعيادهم بزى النصارى، ومباشرة أحوالهم، أو جحد ما علم من الدين بالضرورة) (1)

والحق أن لفظ الكفر إنما يراد به أحد ضربين، كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر هو المخرج من الملة، وهو مضاد لأصل الإيمان وموجب الخلود في النار، وما سبق من ذكر التعريفات الشرعية للكفر إنما تصدق على هذا النوع.

وأما الكفر الأصغر وهو يضاد كمال الإيمان الواجب وهو موجب لاستحقاق الوعيد، ولا يخرج من الدين.

المبحث الثاني: الأحاديث الواردة في الكفر و أقوال أهل العلم في شرحها

تضافرت الأحاديث النبوية الشريفة الدالة على هذين النوعين:

إذ من الكفر الأكبر التكذيب بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم عنادا واستكبارا:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) (2)

قال الإمام النووي: (أما الحديث ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقوله صلى الله عليه وسلم (لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ): أي ممن هو موجود في زماني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما نكر اليهود والنصارى

(1) - الفروق (1277/4)

(2) - صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (153).

تتبيها على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى) (1)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد ثبت في الكتاب، والسنة، والإجماع، أن من بلغته رسالته - صلى الله عليه وسلم - فلم يؤمن به فهو كافر، فلا يقبل منه الاعتذار، لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة) (2)

وقد أشار الخطاب النبوي الشريف، أن زيغ القلب وضلاله وتحقق الغي فيه، إنما هو طريق الكفر البواح.

عن حذيفة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًّا ، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ) (3)

قال الإمام النووي: (تعرض: أنها تلصق بعرض القلوب أي جانبها كما تلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به ومعنى (عودا عودا): أي تعاد وتكرر شيئاً بعد شيء. (فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء)

ومعنى (أشربها) دخلت فيه دخولا تاما وألزمها وحات منه محل الشراب، ومنه قوله تعالى (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي:

حب العجل (حتى تصبر على قلبين...) قال القاضي عياض: ليس تشبيهه بالصفاء بيانا لبياضه، لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم

(1) - شرح النووي على مسلم (273/1)

(2) - مجموع الفتاوى (496/12)

(3) - صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا... (211)

تلتصق به ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء... وشبه القلب الذي لا يعي خيرا بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه) (1)

كما أرشد الحديث النبوي الشريف إلى أن الكفر البواح استحلال الحرام، وتحريم الحرام، لاحتكام إلى غير شريعة الإسلام.

قال تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) . الأنعام 121

فليس كل من أكل الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه يكون مشركا لكن من فعل ذلك طاعة وقبولاً لتشريع غيره كفر، فيكفر بمجرد قبوله لذلك ولو لم يأكل من الميتة !

يقول الإمام ابن كثير معنى قوله تعالى: (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَنْكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقد تم عليه غيره، فهذا هو الشرك (2)

روى الإمام الترمذي في سننه عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي ! أطرح عنك هذا الوثن، وسمعتة يقرأ في سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) قال:

أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه (3)

جاء في تحفة الأحوزي: (أطرح عنك): أي ألق من عنقك (هذا الوثن) وهو كل ماله جثة معلومة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة، كصورة الأدمي. والصنم: الصورة

(1) - شرح النووي على مسلم (283/1)

(2) - تفسير ابن كثير (172/2)

(3) - سنن الترمذي - كتاب التفسير - باب: ومن سورة التوبة

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث، و حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (3095)

بلا جثة... اتخذوا علماء اليهود ورهبانهم أي عباد النصارى أربابا من دون الله حيث اتبعوهم في تحليل ما حرم الله، وما تحريم ما أحل الله(1)

وأما الكفر الأصغر - وهي تلك الذنوب التي سماها الشرع كفرا، ولكنه لم يحكم على أصحابها بالخروج من الإسلام - فقد جاءت النصوص الحديثة الكثيرة التي عينت هذه الذنوب ومثاله ما رواه البخاري في باب (كفر العشير) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أُرِيْتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ أُرِيْتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ) قيل: يكفرن بالله؟! قال: (يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، ولو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط) (2)

وقد نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري قول القاضي أبي بكر بن العربي: (مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانا كذلك المعاصي تسمى كفرا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة، قال:

وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة وهي قوله صلى الله عليه وسلم - (لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا) (3)

ولما أراد الإمام العيني رحمه الله أن يعدد ما استتبط من فوائد وأحكام من هذا الحديث قال: (بيان استتباط الفوائد، منها: تحريم كفران، الحقوق والنعمة، إذ لا يدخل النار إلا بارتكاب حرام. وقال النووي: توعده على العشير وكفران الإحسان والفضل وشكر النعمة. وقد قيل: إن شكر المنعم واجب، ومنها الدلالة على عظم حق الزوج... ولأجل هذا المعنى خص كفران العشير من بين أنواع الذنوب، فلذلك أطلق عليها الكفر، لكنه كفر لا يخرج من الملة) (4)

وتأمل في حديث آخر كيف حذر النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه من أن يقعوا في ذنب التشبه بالكفار المفضي إلى الشرك:

(1) - تحفة الأحوذى للمباركفوري (392/4)

(2) - صحيح البخاري - كتاب الإيمان، باب كفران العشير وكفر دون كفر رقم (3241)

(3) - فتح الباري (105/1)

(4) - عمدة القاري (36/2)

روى الإمام الترمذي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنوط، قال: فمررنا بالسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:.. **اللَّهُ أَكْبَرُ السَّنَنِ** ، **إِنَّهَا قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) [لَتَرْكَبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ]**

كما قالت بنو إسرائيل (اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون)، لتركبن سنن من كان قبلكم⁽¹⁾

فانظر كيف أن الصحابة- في هذه الواقعة- طلبوا مجرد المشابهة للمشركين في أن تكون لهم شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويتبركون بها على نحو فعل المشركين، ماذا كان رد رسول الله صلى الله عليه وسلم!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم، ويسمونها ذات أنواط، فقال بعض الناس: (يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط...، فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أعظم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟

فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها، لم تستجب الشريعة لذلك، فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض سواء كانت البقعة شجرة أو عين ماء أو قناة جارية أو جبلا أو مغارة، وسواء قصدها ليصلي عندها، أو ليدعو عندها

أو ليقراً عندها، أو ليذكر الله سبحانه عندها، أو ليتسكع عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيص تلك البقعة به لا عينا ولا نوعاً⁽²⁾

(1) سنن الترمذي - كتاب الفتن - باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (2180) وقال: حسن صحيح. وأحمد في

مسنده (21390)، والحديث صححه الالباني في "جلباب المرأة المسلمة" (202)

(2) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (157/2-158)

وقال الإمام الشوكاني: (ولم يكن من قصدهم أن يعبدوا تلك الشجرة، أو يطلبوا منها ما يطلبه القبوريون من الشرك الصريح، وأنه بمنزلة طلب آلهة غير الله تعالى) (1)

وفي مقام آخر يرشد الخطاب النبوي أم من صور الكفر الأصغر فقال قتال المسلم أخاه:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ) (2)

قال الحافظ ابن حجر: (.لما كان القتال أشد من السباب- لأنه مفض إلى إزهاق الروح- عبر عنه بلفظ أشد من لفظ الفسق، أطلق عليه الكفر، ولم يرد حقيقة الكفر التي هي الخروج من الملة، بل أطلق عليه الكفر مبالغة في التحذير.. وأطلق عليه الكفر لشبهه به، لأن قتال المؤمن من شأن الكافر) (3)

وقال الصنعاني: (دال على أنه يكفر من يقاتل المسلم بغير حق، وهو ظاهر فيمن استحل قتل المسلم أو قاتله حال إسلامه، وأما إذا كانت المقاتلة لغير ذلك، فأطلاق الكفر عليه مجازاً، ويراد به كفر النعمة والإحسان لا كفر الجحود) (4)

وهذه صورة أخرى من الصور التي عبرت عنها السنة النبوية بالكفر:

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اثنان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت) (5)

جاء في فتح المنعم: (وفي هذا الحديث يجعل الطعن في النسب كالكفر، لأن الكفر يؤدي إلى الحرمان الأخروي، والطعن في النسب يؤدي إلى الحرمان الدنيوي) (6)

(1) الدار النضيد (9)

(2) صحيح البخاري: كتاب الإيمان- باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله (48) وصحيح مسلم: كتاب الإيمان. باب:

بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق (64)

(3) فتح الباري (127/1)

(4) سبل السلام (189/4)

(5) . صحيح مسلم كتاب الإيمان. باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب رقم (67)

(6) . فتح المنعم شرح صحيح مسلم/ موسى شاهين (237/1)

فالطعن في الأنساب من أمور الجاهلية التي نهى الشرع عنها لما فيه من استطالة على أعراض المسلمين ظلما وعدوانا:

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)(1)

يقول ابن القيم رحمه الله: (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة)(2)

وها هو الخطاب النبوي الشريف يطلق لفظ الكفر على من حلف بغير الله.

فقد روى الإمام الترمذي عن سعد بن عبيدة أن ابن عمر سمع رجلا يقول لا و الكعبة ، فقال ابن عمر لا يحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) ، قال أبو عيسى هذا حديث حسن .

ثم قال : (وفسر هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله : فقد كفر أو أشرك،على التغليظ و الحجة في ذلك حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه و سلم سمع عمر يقول : وأبي وأبي ، فقال (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم) فقال عمر : فوالله ما حلفت به بعد ذلك ذاكرا أو آثرا .

قال ابو عيسى : قال أبو عبيد معنى قوله ولا آثرا : أي لم آثره عن غيري يقول : لم أذكره عن غيري. (3)

قال الحافظ ابن حجر في الفتح في شرحه لحديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:(من حلف منكم ، فقال في حلفه باللات فليقل : لا إله إلا الله ..)(4)

(1) - سنن أبي داوود كتاب الادب- باب في الغيبة (4880)أحمد برقم (18940)-

(2) . طريق الهجرتين (271)

(3) كتاب الأيمان و النذور. باب في كراهية الحلف بغير الله(1618)

(4) صحيح البخاري- كتاب التفسير- سورة النجم- باب(أفرأيتم اللات والعزى) (3746)

قال الخطابي: (اليمين إنما تكون بالمعبود المعظم، فإذا حلف باللات ونحوها، فقد ضاهى الكفار، فأمر أن يتدارك بكلمة التوحيد. وقال ابن العربي: من حلف بها جادا فهو كافر، ومن قال جاهلا أو ذاهلا يقول: لا إله إلا الله، يكفر الله عنه، ويرد قلبه عن السهو إلى الذكر، ولسانه إلى الحق وينفي عنه ما جرى به من اللغو)(1)

وقال الشوكاني رحمه الله: (فإن اعتقد في المحلوف به ما يعتقد في الله تعالى كان بذلك الاعتقاد كافرا)(2).

مما سبق إيراده ندرك أن حقيقة الكفر في ضوء السنة النبوية إنما هو أحد ضربين: كفر أكبر، وهو المخرج من الملة، الموجب للخلود في النار، وكفر أصغر، وهي أنواع من الذنوب وسمها الشارع بأنها كفر.

(1) فتح الباري (612/8)

(2) نيل الأوطار (101/9)

ثالثا . الدعوة إلى الله في ضوء السنة النبوية

المبحث الأول: تعريف الدعوة لغة واصطلاحا

الدعوة في اللغة مشتقة من الفعل الثلاثي: دعا يدعو دعوة، والاسم الدعوة، القائم بها يسمى داعية، والجمع دعاة.

ولكلمة الدعوة معان عدة في اللغة: النداء، والطلب، والتجمع، والدعاء، والسؤال...

قال الزمخشري: دعوت فلان وبفلان ناديته وصحت به. (1)

وقال الرازي: والدعوة إلى الطعام بالفتح، يقال: كنا في دعوة فلان مدعاة فلان، وهو مصدر، والمراد بهما الدعاء إلى الطعام. (2)

وقال ابن منظور: الدعوة: المرة من الدعاء.

والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، وأحدهم داع. (3)

وأما الدعوة في الاصطلاح فإنه يراد بها في الغالب معنيان:

الأول: الدعوة بمعنى الإسلام أو الرسالة.

الثاني: الدعوة بمعنى عملية نشر الإسلام وتبليغ الرسالة.

وعلى المعنى الأول (الدعوة بمعنى الرسالة أو الإسلام) جاءت تعريفات اصطلاحية كثيرة، نذكر منها:

هي: دين الله الذي ارتضاه للعالم، تمكينا لخلافتهم، وتيسيرا لضرورتهم، ووفاء بحقوقهم، ورعاية لشؤونهم، وحماية لوحدهم، وتكريما لإنسانيتهم، وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم. (4)

وأما على المعنى الثاني (الدعوة بمعنى عملية نشر وتبليغ الإسلام) نختار منها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية (هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والدعوة إلى الإيمان بالله

(1) أساس البلاغة (189/1)

(2) مختار الصحاح (86/1)

(3) لسان العرب (258/14)

(4) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية لمحمد عبد الرحمن الراوي 11-12.

وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلى أن يعبد الله ربه كأنه يراه. (1)

المطلب الأول: دعوة عامة للناس

الأحاديث الواردة فيها وأقوال أهل العلم في شرحها

روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه: سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم خيبر: (لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه)، فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى فغدوا وكلهم يرجوا أن يعطى، فقال: (أين علي؟) فقيل يشتهي عينيه فأمر فدعي له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: (على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لئن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم) (2)

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أنزلت هذه الآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ٢١٤ الشعراء 214 دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعمّ وخصّ فقال: (يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة انقذي نفسك من النار فإنني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم أرحاما سأبليها ببلالها). (3)

(1) مجموع الفتاوى (157/15-158).

(2) — صحيح البخاري — كتاب: المغازي — باب: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى النبوة والإسلام (605/7) (4206)

. صحيح مسلم . كتاب: فضائل الصحابة . باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (1872/4) (2460)

. سنن البيهقي . كتاب: السير . باب: دعاء من لم تبلغه الدعوة من المشركين (106/9) (18009)

(3) . صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب: في قوله تعالى (و أنذر عشيرتک الأقربین)

(348) (1/192) . سنن الترمذي كتاب التفسير . باب: و من سورة الشعراء (316/5)

قال ربيعة بن عباد الدؤلي: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى المجاز⁽¹⁾ يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول:

أيها الناس لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم. قلت: من هو؟ قالوا: هذا أبو لهب. (2)

ومما خاطب به الناس في ذى المجاز: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا) وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئاً وهو لا يسكت بل يكرر دعوتهم وأبو لهب يصيح: إنه صابئ كذاب. (3)

الشرح:

لقد كان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير المسلمين هو دعوتهم إلى دين الله و تعريفهم به والسعي إلى كسبهم رصيذاً جديداً في صف المسلمين والأحاديث التي بين أيدينا واضحة الدلالة في أن هدف الدعوة إلى الإسلام هو هداية الناس لا قتالهم والظفر بهم وإكراههم على الإسلام.

وتعليقاً على حديث علي رضي الله عنه قال ابن حجر: (ويؤخذ من هذا الحديث أن تالف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله) (4)

إذ يعد الإسلام دعوة الناس إلى دين الله تعالى و تعريفهم به فضل لا يعلوه فضل والتسبب في هداية رجل واحد أفضل عند الله تعالى مما حوته الأرض من مال ومتاع.

قال النووي: (وفي هذا الحديث بيان فضيلة العلم و الدعاء إلى الهدى و سن السنة الحسنة) (5)

(1) — موضع سوق بعرفة على ناحية كعبك كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام، و قال الأصمعي: ذو المجاز ماء من أصل كعبك و هو لهذيل و هو خلف عرفة . أنظر: معجم البلدان لياقوت الحموي (55/5)

(2) . مسند أحمد (492/3)، وروى الحاكم نحوه في مستدرکه (15/1) و قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و رواه عن آخرهم ثقات .. ووافقته الذهبي

(3) . مسند أحمد (341/4) و الحاكم في مستدرکه (15/1)

(4) . فتح الباري (607/7)

(5) . صحيح مسلم بشرح النووي (178/15 . 179)

وقال الشوكاني: (والحديث فيه الترغيب في التسبب لهداية من كان على ضلالة وأن ذلك خير للإنسان من أجلّ النعم الواصلة إليه في الدنيا) (1)

ويمنع الإسلام من المبادرة إلى مخاصمة الناس أو العمل على مقاتلتهم، لأن ذلك خلاف للأصل وقفز وتجاوز لمرحلة واجبة التنفيذ و هي دعوتهم إلى الإسلام وتعريفهم به وإقامة الحجة عليه.

قال السرخسي: (وإذا غزا الجيش أرضاً لم تبلغهم الدعوة لا يحل لهم أن يقاتلهم حتى يدعواهم إلى الإسلام ليعرفوا أنهم على ماذا يقاتلون، و هو معنى حديث ابن عباس رضي الله عنهما (ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما قط حتى دعاهم إلى الإسلام) (2) ولو قاتلهم بغير دعوة كانوا آثمين) (3)

ومما تجب ملاحظته — من خلال هذه الأحاديث أن المطلوب من الداعي هو دعوة الناس إلى الإسلام و ليس المطلوب منه أن يهديهم، قال تعالى: (... وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبُلُغُ الْمُبِينِ) ٥٤ سورة النور الآية 54 وقال تعالى: (إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبُلُغُ ...) ٤٨ سورة الشورى الآية 48.

فمن أراد دعوة غيره إنما هو محتسب أمره بالمعروف و نهيه عن المنكر لله تعالى الذي بيده تصريف القلوب، قال النووي: (ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر و النهي لا القبول) (4).

فالواجب على المسلم أن يدعو إلى دين الله و يحسن التعريف به سواء حسن المقصود واستجابوا له أم لم يستجيبوا، لأن الهداية والاستجابة بيد الله وحده، قال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...) ٥٦ سورة القصص الآية 56

(1) . نيل الأوطار . باب: دعوة الكفار إلى الإسلام قبل مقاتلتهم (55/8)

(2) . مسند أحمد (231/1) و سنن البيهقي . كتاب: السير . باب دعاء من لم تبلغه الدعوة (107/9)

(3) . مسند أحمد (231/1) و سنن البيهقي . كتاب: السير . باب دعاء من لم تبلغه الدعوة (107/9)

(4) . صحيح مسلم بشرح النووي (23/2)

مقومات نجاح الدعوة إلى الله:

ومن مقومات النجاح في هذه الوظيفة السامية، وتحقيق المقصود — بإذن الله تعالى . وهو استجابة المدعوين لدين الله: ضرورة تزود الداعية المسلم بالعدة التي تعينه على تحقيق ذلك، وهي أن يؤدي دعوته لهؤلاء عن فهم دقيق و بإيمان عميق مع اتصال بالله تعالى وثيق:

أ . الفهم الدقيق:

إذا كان من المجمع عليه أن يكون الداعي على بصيرة و علم بما يدعو إليه و بشرعية ما يقوله و يفعله و يتركه، فإن الفهم الدقيق يعد من العلم العزيز النادر الذي يغفل عنه الكثيرون، و بدونه لا يعد العالم عالما و إن حفظ الشروح و المتون و الأحكام و ملأ رأسه منها و ردها على لسانه(1)

يقوم الفهم الدقيق على تدبر معاني النصوص الشرعية من قرآن كريم و سنة صحيحة و فهم عميق للمصطلحات الشرعية مثل: الإيمان و الكفر و الشرك و النفاق والجاهلية(2).

فهذه مصطلحات لها أثرها الكبير في تحديد طبيعة الشخص المدعو من جهة، وأسلوب دعوته من جهة أخرى لأن هذه المسألة هي جوهر قضيتنا: كيف نتعامل مع أصناف الخلق وطبقات المجتمع؟

فأصحاب الدعوة والإصلاح قد لا يختلفون في تقرير الأحكام الشرعية المجردة، ولكنهم يتنازعون في تحديد أسلوب التعامل مع أصناف البشر، وهذا هو محل النزاع الذي يحتاج إلى تحرير وتحقيق وفهم دقيق بوعي وبصيرة راشدة.

وقد أدرك العلماء القدامى _ رحمهم الله تعالى _ خطر غياب الفهم عن المسلم في تعامله مع النصوص الشرعية أو في تعامله مع غيره من الناس بناء على هذه النصوص.

(1) . المبسوط (31/9)

(2) . صحيح مسلم بشرح النووي (23/2)

يقول الإمام الشاطبي - وهو يتحدث عن صفات العالم - : (... أن يحصل له فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، و معرفة اصطلاحات أهله ما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء، وأما ما هو راجع إليه وهو معنى قول من قال: كان العلم في صدور الرجال ثم إنتقل إلى الكتب و مفاتحه بأيدي الرجال. والكتب و حدها لا تفيد الطالب منها شيئاً دون فتح العلماء وهو مشاهد معتاد) (1)

فالإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - يقرر حقيقة كبرى وهي أن أخذ العلم من بطون الكتب ثم التوجه به نحو الناس لتعليمهم ودعونهم به دون الرجوع إلى العلماء فيه خطر كبير (2)

ويؤيده في هذا العلامة ابن القيم - رحمه الله - الذي يكشف عن خطر سوء الفهم على الداعي والمدعو على السواء بقوله: (ينبغي أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمل ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى و البيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، فينتق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله!!!) (3)

(1) . الموافقات (97/1)

و هو ما يعبر عنه المعاصرون بفقهِ الأوراق: و هو فهم أوراق الكتب و ما تحويه من المعاني المجردة بعيدا عن الأحوال والملابسات والمؤثرات المحيطة بذلك المعنى، ومن أهم أسباب هذه الظاهرة السلبية: عدم التلمذة على العلماء الربانيين الذين يحسنون التربية و التوجيه و يعطون لطلابهم المعرفة مقعدة منضبطة بمقدار دقيق، و ما يتخرج الطالب من بين أيديهم إلا و قد وعى العلم مؤصلا مؤسسا متكامل متوازنا ... على عكس من انطلق مسرعا يقرأ كتيبات أو يحضر محاضرات أو يسمع تسجيلات، فيأخذ منها ما تسارع إلى فهمه و ينقله إلى الآخرين بغير وعي كامل مغفلا الظروف و الخلفيات و البواعث لما قرأ أو سمع، فينتج عن ذلك فهم ضحل مبتور عن كثير من الحقائق و المعارف و المفاهيم. أنظر: الفقه الحركي في العمل الإسلامي المعاصر . دراسة تأصيلية نقدية . لموسى إبراهيم الشيخ (12 . 15) . بتصرف

(2) . انظر: أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان (237)

الصحة الإسلامية بين الإختلاف المشروع والتفرق المذموم للدكتور يوسف القرضاوي (77)

(3) . كتاب الروح . المسألة السابعة (99)

ومما يلزم الداعية المسلم معرفته — إضافة إلى فهمه للنصوص الشرعية — أن يفهم الواقع الذي يتحرك فيه، إذ عليه أن يكون عارفاً بالحياة الواقعية دارساً لمشاكلها وأسبابها، محيطاً بما جد بها من مذاهب وعقائد حتى يتسنى له أن يؤثر بدينه في غيره، بدعوة هادية هادفة تراعي إطار الزمان والمكان وحركة الحياة والتاريخ، فيكون قادراً على إقناع الإنسان المعاصر بكل تعقيداته العقلية والثقافية، ولأخذ بيده نحو الهداية والفلاح من خلال إدراك الكليات الإسلامية، وتمييز الثوابت عن المتغيرات وإدراك المقاصد وتحديد الغايات.⁽¹⁾

ب . الإيمان العميق:

وهو تيقن الداعي بأحقية الإسلام، بإيمان عميق ثابت لا يتزعزع، و أن لا يستوحش طريق الدعوة الذي سلكه لقلّة المستجيبين⁽²⁾، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ سورة آل عمران الآية 186.

فإن من سنة الله في عباده المؤمنين الداعين إليه المجاهدين في سبيله أن يبتلوا بأنواع البلاء.. ومن البلاء الذي يبتلون به على وجه الإمتحان وحسب مقتضيات سنة الله تعالى في الداعين إليه ما يسمعون من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم من الكفرة من أنواع الأذى القولي كالتعريض في الإسلام وفي الدعاة إليه وبالصاق التهم الباطلة بهم لصد الناس عنهم وعن دعوتهم وإن من عزائم الأمور الصبر على هذا الأذى والإلتزام بالتقوى.⁽³⁾

وهذا الإيمان ضروري لمن أراد دعوة غيره، لأن وجود الشك والإهتزاز وقلّة العلم عند الداعية المسلم يعد ثغرة يؤتى منها قد تكون سبباً في تنفير غير المسلمين من الإسلام بدلا من كسبهم و تحبيبهم إليه، لأن المترددين والمتشككين لا يمكنهم أن يملكوا جرأة ولا حجة يقنعوا بها خصومهم وإن رأيتهم يتتمقون بالتعابير المنتقاة ويتقاصحون بالكلمات العذاب.⁽⁴⁾

(1) . دكتور طه جابر العلواني: مقدمة كتاب: كيف نتعامل مع السنة للدكتور القرضاوي . بتصرف

(2) — قال ابن حزم: (لا تسوحش مع الحق، فمن كان معه الحق فالخالق تعالى معه، و لا تبال بكثرة خصومك و لا بقدم أزمانهم و لا بتعظم الناس إياهم و لا بعدتهم فالحق أكثر منهم) - ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان لمحمد علي حماية (209

(3) . السنن الإلهية في الأمم في الأمم و الجماعات و الأفراد . بتصرف د /عبد الكريم زيدان (87)

(4) . أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية . د/ نور الدين بن يربح (28)

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أعلى درجة من درجات اليقين بصحة طريقه وسلامة منهجه، وقد عبر عن ذلك يوم تخلت الدنيا كلها عن دعوته بقوله: (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه).⁽¹⁾

ج . الإتصال الوثيق:

والمقصود به تعلق الداعي المسلم بربه وتوكله عليه في جميع أموره لاعتقاده الجازم بأن الله وحده هو النافع و الضار والمعطي والمانع.

قال ابن قدامة المقدسي: (بان يعلم بأن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، و أنه لا رزاق سواه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل و الخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد).⁽²⁾

فتزداد ثقة الداعي المسلم بربه ويقوى يقينه في نصره، قال الله تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ) ٥١ سورة غافر الآية 51

أي: ننصرهم في الدنيا والآخرة بأن يغلبوا أعداءهم في الدنيا بالقتال وبالحجة وإن غلبوا في بعض الأحيان إمتحانا لهم من الله تعالى، ولكن العاقبة دائما لهم.⁽³⁾

وعلى الداعية المسلم أن يدرك أن نجاحه في دعوته مرهون بإخلاصه وصدق نيته وتجرده للحق، حتى تكون الغاية من دعوته رضا الخالق لا ثناء الخلق وسعادة الآخرة لا منفعة الدنيا، فيحذر من أن تتحول دعوته إلى بحث عن الجاه والشهرة والمصلحة أو نصره لنزعة عصبية ظاهرة أو خفية.. وكل ذلك يحتاج إلى مجاهدة للنفس.

عن علي بن سالم قال: سمعت سهل بن عبد الله وقد قيل له: (أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب).⁽⁴⁾

(1) . سيرة ابن هشام (330/1): صرح ابن اسحاق بالسمع وسنده منقطع، و به يكون الحديث ضعيفا.

(2) . مختصر منهاج القاصدي (284 . 285)

(3) . أنظر: الكشاف (172/4) و تفسير القرطبي (322/15)

(4) . صفة الصفوة لجمال الدين أبي الفرج الجوزي (46/4)

فكلما تجردت النوايا وخلصت الأعمال لله تعالى كانت العواقب أسلم والنتائج أحسن في العاجل والآجل.

يقول ابن حزم رحمه الله: (إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا الى أن الحقيقة إنما هي العمل للأخرة فقط، لأن كل أمر ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك وإما بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشئيين، إلا العمل لله عزّ وجل فعقباه على كل حال سرور في عاجل أو آجل، أما العاجل فقلة الهمة بما يهتم به الناس، وإنك به معظم من الصديق والعدو، وأما في الآجل فالجنتة). (1)

إن السنة النبوية ترشد الى أن الداعية الحق هو الذي لا يقرن دعوته وسائر عباداته بشيء سوى إرضاء خالقه، حتى لا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال العز بن عبد السلام: (فمن اقترن بعبادته شيء من ذلك، أي من الأغراض الدنيوية أبطلها لأنه جعل عبادة الله وطاعته وسيلة إلى نيل أغراض خسيسة دنية، فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير فهذا هو الرياء الخالص). (2)

ومما دلت عليه الأحاديث التي بين أيدينا هو توجيه الدعوة والتعريف بالإسلام الى العامة من الناس إذ أن الدعوة لا بد أن تمس كل الفئات والطبقات، لكن ما المقصود بالعامّة ولماذا توجيه الدعوة إليهم؟

المراد بالعامّة: إن في كل مجتمع يوجد من يملك النفوذ والسلطان وبيده مراكز التأثير في المجتمع كما يوجد عوامّ وبسطاء يمثلون عادة الفئة الغالبة، أو ما يعرفون بجمهور الناس.

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: (نريد من قولنا جمهور الناس: معظمهم، لأن جمهور كل شيء معظمه وأكثره والمقصود بمعظم الناس: ما عدا (الملا) وهم عادة قلة، أما ما عداهم

(1) . الأخلاق و السير في مداواة النفوس (13)

(2) . قواعد الأحكام في مصالح الأنام (147/1)

فهم أكثرية الناس في أي مجتمع بشري وهؤلاء الجمهور يكونون عادة مرؤوسين للملأ وتابعين لهم، كما يكونون غالبا فقراء وضعفاء). (1)

. ما الحكمة من توجيه الدعوة الى عامة الناس من خلال حديث مسلم ؟

إن اعتماد أسلوب الدعوة تجاه العامة من الناس إنما هو في الحقيقة التحرك الخير لأهل الحق في أكبر و أوسع و سط بشري عند المدعويين، فقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يكون العامة هم أكثر أتباع الأنبياء، قال الله تعالى — مخبرا عن قوم نوح عليه السلام — : (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِي أَلْرَأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ٢٧) سورة هود الآية 27.

قال ابن كثير: (ثم الواقع غالبا أن يتبع الحق ضعفاء الناس). (2)

فحين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى أولئك البسطاء و الفقراء الذين يرزحون تحت ضغط الكبراء، إنما عمل كل جهده لإنتشالهم من بينهم وسحبهم الى صف المسلمين أين يجدون الرعاية لإنسانيتهم والإعتبار لكرامتهم بشريعة تعتبر كل إنسان على ظهر البسيطة أهلا لتقبل الحقوق والإلتزام بالواجبات كأى إنسان آخر، وأن الأصل والجنس واللون لا يمكن أن يفرق بين إنسان وآخر أمام القانون الإلهي — قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ١٣ سورة الحجرات الآية 13.

ومن المسلمات التي لا تحتاج الى تأكيد أن هذا الدين إنما جاء للناس كلهم: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) ٢٨ سورة سبأ الآية 28.

فكان مبعث رسول الله لكل البشر على إختلاف ألوانهم ومراتبهم، عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، حكام ومحكومين.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: أطرده هؤلاء لا يجترؤن علينا ! قال وكنت

(1) . أصول الدعوة (390)

(2) . تفسير ابن كثير (234/3)

أنا وابن مسعود و رجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز و جل: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ... (1) الآية 52 سورة الأنعام.

فقد رفض رسول الله تقرب الكبراء والسادة على حساب الفقراء والمستضعفين، لأن الدعوة التي جاء بها دعوة بناء وإعمار للكون والحياة لا تصلح بالسادة وحدهم ولا بالأغنياء وحدهم، وصناعة الحياة المتكاملة تحتاج الى جهود الجميع، وأن المجتمع المسلم والذي يشكل نموذجا صادقا لتعاون جميع أفرادهِ حيث يعرف كل إنسان فيه مكانه و يؤدي دوره.

وعلى الداعية المسلم أن يدرك أن تغيير مجتمعات الكفر من حال الخصومة للإسلام وأهله الى حال الإعتراف به والإيمان بشريعته لن يتم . في الغالب . إلا بالتغيير القاعدي وذلك بحسن عرض الإسلام على بسطائه وعامته وتعريفهم بمبادئ الإسلام التي تحمي كرامتهم وتصون حقوقهم، وأن يحسن توظيف قابلية هؤلاء العامة لدعوة الإسلام و ذلك لخلوهم من موانع القبول كحب الرئاسة والتسلط والكبر وهو ما لا يوجد عند الكبراء عادة(2)

إن النجاح في دعوة هؤلاء العامة إنما يعني تحويل طاقات وقدرات بشرية نحو البناء الرسالي في رحاب الإسلام، حيث يجدون الشرائع والأحكام التي تفجر طاقاتهم نحو الخير والإعمار، وقد كانت ثمرة دعوة رسول الله لعامة قومه أن جعل منهم السادة والقادة والعلماء والخلفاء .

ولم يكن منهج رسول الله في الدعوة لهؤلاء العامة يقوم على فكرة تجميع البشر وتكثير المنتسبين فحسب، بل إنه منهج يقوم على مبدأ حسن توظيف الطاقات البشرية في ما هو صالح ونافع، وقد أخذ ذلك من رسول الله الكثير من التدبير والتخطيط والعمل الدؤوب.(3)

وقد قدم الإمام الشاطبي — رحمه الله تعالى — تصورا إسلاميا بديعا حول أساليب إختيار الكفاءات وحسن توظيفها خدمة للدين والأمة، فيقول - رحمه الله - : الله عزّ وجل خلق الخلق

(1) . صحيح مسلم . كتاب: فضائل الصحابة . باب: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (4/1878) (2413) . و الآية من سورة الأنعام برقم 52.

(2) . أنظر: أصول الدعوة (391)

(3) . أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية / د: نور الدين بن يريح (35)

غير عالمين بوجود مصالحهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، ألا ترى الى قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا...)(٧٨) سورة النحل الآية 78، ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدرج والتربية، تارة بالإلهام كما يلهم الطفل النقام الثدي ومصه، وتارة بالتعليم فطلب الناس بالتعلم والتعليم لجميع ما يُستجلب به المصالح وكافة ما تُدرأ به المفسد.

وفي أثناء العناية بذلك يقوى في كل واحد من الخلق ما فطر عليه و ما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال، فلا يأتي زمان التعقل إلا وقد نجم على ظاهره ما فطر عليه في أوليته، فترى واحدا قد تهيأ لطلب العلم وآخر لطلب الرئاسة وآخر للتصنع لبعض المهن المحتاج إليها وآخر للصراع والنطاح الى سائر الأمور، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات إلى تلك الجهات فيراعونهم بحسبها ويراعونها أن تخرج في أيديهم على الصراط المستقيم، فعند ذلك يحصل الإنتفاع وتظهر نتيجة تلك التربية.(1)

وهو الهدف الذي إعتد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوب الدعوة تجاه العامة والبسطاء حين عمل على إخراجهم من محيط الكفر والشرك أولاً، ثم إعدادهم إعداداً إسلامياً يمكنهم من تحمل الأمانة وأداء الرسالة، فكم من إنسان بسيط كان في مجتمع الكفر نكرة لا يؤبه به أضحى في الإسلام علما يقتدى به؟

. ما الذي يستنبط من خلال حديث ربيعة بن عباد الدؤلي ؟ (2)

لقد روى ربيعة بن عباد الدؤلي كيف كان رسول الله يتبع الناس في منازلهم يدعوهم الى الله عزّ وجل وكيف كان أبو لهب يصد عنه الناس، فما الذي نفهمه من هذا الموقف؟

والجواب عن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوجه بالدعوة الى أولئك العوام إنما كان يعلم أشد العلم أن رؤوس الكفر تسعى بشتى الوسائل الى تحويلهم نحو خطها وعقيدتها حتى تجعل منهم مادة تخاصم الإسلام والمسلمين، لذلك حرص رسول الله كل

(1) . الموافقات للإمام الشاطبي (179/1 . 180)

(2) . هو ربيعة بن عباد الدؤلي بن كنانة، مدني روى عن ابن المنكدر و أبي الزناد و غيرهم، يعد في أهل المدينة وعمر

عمرًا طويلاً، ينظر: الإصابة (509/1)

الحرص على الصلاة في المسجد الحرام وإظهار شعائر الإسلام، وهنا حاول المشركون تفويت هذه الأغراض بالمضايقة والإيذاء. (1)

فرواية ربيعة بن عباد الدؤلي - وغيرها في السنة النبوية كثير - تؤكد اعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب "الإتصال بالجماهير" مثلما نسميه بلغة العصر، كان رد الفعل لدى خصومه أن قاموا بعملية "التشويش" على دعوته بشتى السبل، وفي سبيل جذب العوام إليهم عمدوا إلى التكذيب والمجادلة بالباطل وحملات التئيس والتشكيك وكل ما من شأنه أن يحول دون وصول صوت القرآن إلى أسماع المستضعفين، وقد تحدث القرآن الكريم عن محاولاتهم تلك، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) ٢٦ سورة فصلت الآية 26.

إن الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل حول استقطاب عامة الناس وبسطائهم هو ما يمكن تسميته بلغة العصر بكسب "الرأي العام" (2) والمنتصر فيه هو من يحسن انتقاء الأساليب ويتقن إدارة الصراع حتى يحول هذا الرأي العام إلى خطه وعقيده.

وها هم خصوم الإسلام المعاصرون يتحركون اليوم بكل قوة ونشاط لنشر دعواتهم وعقائدهم ضمن دائرة "عامة المسلمين" وفقرائهم وبسطائهم مستخدمين في سبيل ذلك كل الآليات والوسائل والإمكانات.

فقد استغلوا المجاعات والفقر والمرض والجهل لينشروا دينهم بين المسلمين، وإذا رصد خصوم الإسلام الأموال وسخروا الإعلام ليقنطعوا المسلمين من جذورهم، فلماذا لا يرصد المسلمون أضعافها ويسخروا من وسائلهم أقواها لحماية أنفسهم والحفاظ على وجودهم.

(1) - السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (150/1) . بتصرف.

(2) — برز مصطلح "الرأي العام" مع بروز التجمعات السكنية أو ما يمكن تسميته بالجماهير الغفيرة و قد قسمه البعض إلى:

أ . الرأي العام المستنير: و هو رأي الطبقة المثقفة

ب . الرأي العام المسيطر: و هو رأي القادة و الزعماء و الحكومات

ت . الرأي العام المنقاد: و هو رأي السواد الأعظم الذي لا يستطيع المتابعة و البحث

أنظر: المسؤولية الإعلامية في الإسلام للدكتور محمد سيد محمد (165 . 166)

فالطريق الذي رسمه الإسلام في الدعوة إلى الله هو طريق هداية الخلق وإقامة منار العدل وذلك من أجل العبادات إلى الله فقد قال صلى الله عليه وسلم: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) (1)

إن المنهج الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة كان منهاجاً جاداً محدد الأهداف مدروس الوسائل بعيداً عن العفوية والإرتجال، فكانت الثمرة بناء مجتمع فاضل قوي مترابط، وإلى مثل تلك الدعوة يحتاج المسلمون المعاصرون عسى أن يحققوا في أمتهم بعثاً جديداً.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: (إن الدعوة إلى الله تعالى ليست صيحة مبهمة أو صرخة غامضة، إنها برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبدروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين). (2)

(1) . صحيح مسلم . كتاب: العلم . باب: من سن سنة حسنة (2060/4) (2674)

(2) . مع الله . دراسة في الدعوة والدعاة (37)

المطلب الثاني: دعوة الزعماء والعلماء

الأحاديث الواردة فيها وأقوال أهل العلم في شرحها

— روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ما عندك يا ثمامة؟) فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد ثم قال له: (ما عندك يا ثمامة؟) قال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكرك، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: (ما عندك يا ثمامة؟) فقال: عندي ما قلت لك، فقال: (أطلقوا ثمامة)، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد و الله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، و الله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلي، و الله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي و إن خيلك أخذتني و أنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم و أمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله لا يأتكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾

- روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال حدثني أبو سفيان من فيه الى في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل عظيم الروم:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، و أسلم يُؤتكَ اللهُ أجرَكَ مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و) قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).⁽²⁾

(1) . صحيح البخاري . كتاب: المغازي . باب . وفد بني حنيفة و حديث ثمامة بن أثال (109/8) (4372)

. صحيح مسلم . كتاب: الجهاد و السير . باب: ربط الأسير و حبسه و جواز المن عليه (1386/3) (1764)

(2) . صحيح البخاري . كتاب: التفسير . باب: (قل يا أهل الكتاب) (214/8) (4553)

— روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود) (1)

الشرح: إن الإسلام دين سلام وعقيدة حب و نظام يستهدف جمع كل الناس تحت لواء الدين إخوة متعارفين متحابين، وحين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة العامة والزعماء والعلماء إنما أراد تكوين مجتمع فاضل تحميه القيادة الراشدة والرعية الصالحة.

ولم يعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الزعيم أو العالم عائقاً يحول دون توجيه الدعوة إليه، بل كان منهجه دائماً هو الحفاظ على أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة، وهذا الذي تجسد في معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لثمامة بن أثال زعيم قومه حين قبض عليه وصار أسيراً بين يديه.

قال ابن حجر: (وفي قصة ثمامة من الفوائد: ربط الكافر في المسجد والمن على الأسير الكافر وتعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبا في ساعة واحدة لما أسداه النبي صلى الله عليه وسلم من العفو والمن بغير مقابل، وفيه الملاطفة من يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه). (2)

وقال النووي: (هذا من تأليف القلوب لمن يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير). (3)

(2) — صحيح مسلم — كتاب: الجهاد و السير — باب: كتابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعو إلى الإسلام (1393/3) (1773) 0 والآية من سورة آل عمران برقم 64

(2) — صحيح البخاري — كتاب: مناقب الأنصار — باب: إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم المدينة (349/7) (3941)

. صحيح مسلم . كتاب: صفات المنافقين و أحكامهم . باب: نزول أهل الجنة (2151/4) (2793) بلفظ: (لو تابعتني عشرة من اليهود لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم)

فتح الباري (111/8)

(3) . صحيح مسلم بشرح النووي (89/12)

ومعاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الزعماء بهذا الأسلوب الرفيع والحكمة البالغة، سواء بدعوتهم مشافهة أو مكاتبة هو أدب نبوي عال إنتهجه رسول الله كما أنتهجه إخوانه من الأنبياء قبله.

قال الإمام أحمد بن محمد التميمي النجدي: (وقد أدب الله تعالى أنبياءه في خطابهم للرؤساء من أعدائه، فقال لموسى وهارون في حق فرعون: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٤٤) طه 44.

وما ذلك إلا مراعاة لقلبه حتى لا ينصرف بالقول الخشن، فكيف برئيس تقدم في العلم تطلب فوائده وترجو الخير في ايراده فأحرى بنا أن نذلل له العبارة ونوطيء له جانب الجدل لتنهال فوائده انهيالاً).⁽¹⁾

إن حسن التعامل الذي يجعله الله تعالى سببا في هداية زعيم أو حاكم ينتج عنه للأمة خير عميم مثلما أن سوء التعامل معه - والذي قد يكون سببا في تنفيره - ينتج عنه شر كبير. لهذا نجد كيف أن رسول الله يشدد في النهي عن منابذة الحكام العصاة من المسلمين والخروج عليهم لما ينجم عنه من فتن ومهالك.

روى عوف بن مالك الأشجعي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم) قالوا: قلنا يا رسول الله أفلا نناذبهم عند ذلك؟ قال: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله و لا ينزعن يدا من طاعة)⁽²⁾

وعلى الداعية المسلم أن يدرك أن استجابة هذا النوع من المدعويين صعب في الغالب إذ عادة ما يتصورون أن استجابتهم للحق و الهداية تسلبهم مراكزهم، فيُحال بينهم و بين جاههم و عزهم و شهواتهم فيقوى المانع من القبول جدا.

(1) . الفواكه العديدة في المسائل المفيدة (360)

(2) . صحيح مسلم . كتاب: الإمامة . باب: خيار الأئمة و شرارهم (3/1482) (1855)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فإن انضاف الى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ازداد المانع من قبول الحق قوة، فإن هرقل عرف الحق و همّ بالدخول في الإسلام، فلم يطاوعه قومه، وخافهم على نفسه، فاختر الكفر على الإسلام بعدما تبين لهم الهدى). (1)

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى: (وقد اجمعت المصادر الأجنبية المعتمدة على أن هرقل كان شديد التدين عظيم الإيمان، فليس من الغريب أن يستهويه الكتاب النبوي وما جاء فيه — بالرغم من ايجازه — من رفق الدعوة و حكمة النبوة، وليس من المبالغ فيه، ما جاء حول تجاوبه مع الكتاب النبوي تجاوبا واضحا، ولكن تجاوبه لم يخرج أبدا الى حيز التنفيذ، إذ كان ملكه ومصيره في حاضره ومستقبله أعلى عليه من الإيمان، فأثر الدنيا على الآخرة، وما عند الناس على ما عند الله، وقد حاول أن يجد طريقا لا خطر فيه على ملكه ومستقبله فوارب في ميله للإسلام، فقبلت مواربته بالرفض الشديد العنيف من حاشيته ورجاله وأهل دولته وقساوسته، فتخلى عن تلك المحاولة إلى الأبد ومضى مع التيار السائد الذي كان قوي عارما و أثر السلامة على ما يمكن أن يحقق به من أخطار). (2)

على المسلم الذي يرى أم يعرض الإسلام على هؤلاء الزعماء أن يدرك أنه يتعامل مع إنسان ذي نفسية و طبيعة لها في الغالب خصائصها التي تميزها وظروفها التي تحكمها، فإن أدرك ذلك كان أسلوب دعوته أنجح و تأثيره . بإذن الله تعالى . أقوى.

ولنا أن نتساءل: لماذا اختار رسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب مع ثمامة ؟ و لماذا دعا هرقل بتلك الحكمة ؟

والجواب: أنه صلى الله عليه وسلم أدرك طبيعة نفوسهم و ظروفهم لأن موانع الإستجابة عندهم كثيرة نذكر منها ما يلي:

● أولا: شعورهم بالكبر والإستعلاء: وهو شعور يحول دون رؤية الحق في الغالب أو قد يرى الحق ولكنه يستكف عن الإجابة كرها من أن يصير تابعا لغيره وقد ألف أن يتبعه

(1) . هداية الحيارى (16)

(2) . السفارات النبوية (75)

الناس، ومن الآيات الدالة على هذه الصفة عندهم قوله تعالى: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ٥٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ٦٦ ٤ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ٤٧ ٤ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ٤٨) المؤمنون، الآيات من 45 إلى 48.

وقوله تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْفَرْعَانُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهْمَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢) الزخرف 31 . 32

قال ابن عباس رضي الله عنه: (يعنون بالرجل العظيم: جبار من جبابرة قريش). (1)

فهم بدافع نفوسهم المستعلية إستصغروا شأن الرسول صلى الله عليه وسلم و لم يروه أهلا للرسالة، في حين رأوا أنفسهم و أمثالهم من الكبراء أهلا لها، فراعى رسول الله هذا الجانب من نفوسهم المستعلية إذ خاطبهم بالأسماء و الألقاب التي يحبونها، إذ خاطب هرقل بما يليق به حاكما و ملكا قائلا: (هرقل عظيم الروم) وذلك من أدب رسول الله وحكمته في التعامل مع هذه النفوس .

بل قد اعتبر بعض أهل العلم تسمية الملوك و الرؤساء بما يليق بهم وبمقامهم ليس إلا إقرارا بما أكرمهم به الله تعالى:

فيقول الإمام أبو الحسن الماوردي: (إن الله عزَّ وجلَّ أكرمهم بالصفة التي وصف بها نفسه فسماهم ملوكا وسمى نفسه ملكا فقال: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤) الفاتحة 4، وقال: (فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ... ١١٦) المؤمنون 116، وقال فيما وصف به البشر: (...إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طٰلُوتَ مَلِكًا ٢٤٧) البقرة 247، وقال: (...إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أُنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ... ٢٠) المائدة 20، وقال: (...وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَعٰثَنَةُ اللَّهِ الْمَلِكُ وَالْحِكْمَةُ... ٢٥١) البقرة 251. (2)

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب كل إنسان بأسلوب يراعي فيه ما تميل إليه نفسه وتحبه، فخاطب الملوك بهذه اللغة التي تعبر عن حكمة بالغة في انتقاء

(1) . تفسير ابن كثير (261/5)

(2) . نصيحة الملوك المنسوب لأبي الحسن الماوردي . تحقيق و دراسة: فؤاد عبد المنعم أحمد (51)

أساليب الدعوة والتعامل خاطبهم كل حسب موقعه ومكانته بين قومه حتى يرق قلبه وتتهياً نفسه للتقبل والسماع.

● **ثانياً:** حبههم للرئاسة والجاه: إن الإنسان محب لما ألف العيش فيه - غالباً - فكيف إذا كان هذا العيش في كنف الجاه والرئاسة، لذلك فإن هؤلاء الزعماء عادة ما يرفضون الإستجابة للدعوة خوفاً من أن تسلبهم جاههم و سلطانهم الذي ألفوا العيش فيه.

وقد أقر القرآن الكريم بهذه الحقيقة، فقال الله تعالى: (وَأَنْطَلِقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آهَاتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۖ) سورة ص 6.

قال ابن جرير: (إن الملاء قالوا إن هذا الذي يدعونا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والإستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه).⁽¹⁾

فقد رفض هؤلاء الزعماء دعوة نبيهم لظنهم أنها تفقدهم جاههم و سلطانهم على الناس، وتحرمهم حياة الترف و النعمة التي تعودوا عليها.

وعادة المترفين لما يفعله فيهم الترف من بطر النعمة و الإنغماس في الملذات أنهم يسارعون قبل غيرهم في تكذيب رسل الله ورد الحق الذي جاءوا به إستدلالاً باطلاً بما هم عليه من كثرة المال والأولاد وسعة الجاه والسلطان وكثرة الأتباع وعلو منزلتهم عند الناس.⁽²⁾

ولذلك قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۚ ۝۳۵ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝۳۶) سبأ 34 . 36.

سؤال: و لكن هل يصح الإقرار ببعض العز و الشرف لمن يرجى إسلامه، و هل في سنة رسول الله ما يجيز ذلك؟.

والجواب: أن علماءنا الأجلاء قد قرروا أن أحكام الإسلام مرتبطة بمقاصدها وتدور مع تلك المقاصد وجوداً وهدماً، فبقول الإمام الشاطبي: (إن الأعمال بالنيات، والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعبادات، والأدلة على هذا المعنى لا تنحصر ويكفيك

(1) . تفسير الطبري (27/4)

(2) . السنن الإلهية (184)

منها أن المقاصد تفرق بين ما هو عادة وما هو عبادة وفي العبادات بين ما هو واجب وغير واجب). (1)

وعلى ذلك فما دام القصد من إقرار هذا الزعيم على بعض العز والشرف يجذبه إلى الإسلام ويحبه إليه فإن الواجب هو ذلك، ما لم يكن في ذلك ضرر بالإسلام وشريعته، وقد أعطى رسول الله أبا سفيان - وهو يومئذ خصم للإسلام - مرتبة من الشرف والجاه تأليفاً لقلبه، وكان ذلك يوم الفتح حين قال العباس لرسول الله: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً، قال: (نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن). (2)

فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشبع فيه عاطفة الفخر ويستميله للإسلام، وحتى يشعر بأن مكانته محفوظة بين قومه حتى لو أسلم. (3)

ثالثاً: جهلهم بحقيقة الإسلام: إن مما يؤسف له أن كثيراً من الناس من غير الملمين لا يعرفون الحقائق الإسلامية إلا عن طريق ما يكتبه و ينقله أعداء الإسلام، فينقلون صورته شائهة كما يحبون و على ما تهوى أنفسهم المعادية للإسلام .

فكثيراً ما تصل هؤلاء الزعماء صور خاطئة و تقارير زائفة عن حقيقة الإسلام، أو قد يتصورون هم صوراً مخافة لحقيقة الدين، مثلما أنكر الملام من قوم نوح عليه دعوته بحجة أنه نبي بشر! و لو عرفوا و أدركوا أنه لو لم يكن بشراً مثلهم لاستحال عليه أن يكلمهم أو يدعوهم و يفهمهم دعوته، كما أنكروا عليه أن أتباعه ليسوا إلا أولئك الفقراء و البسطاء، فقد جهلوا أن الفقر و الضعف لا علاقة له بصفاء النفوس و الإستجابة للإيمان، قال تعالى: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثَّنَا وَمَا نَرِيكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ٢٧) هود 27.

كما أن ظروف مواقعهم التي هم فيها عادة ما تكون من أسباب بعدهم عن مجالسة العلماء وبالتالي معرفة صفاء الدين وسمو أحكامه، فيقعون تحت تأثير البطانات التي تتولى غالباً نقل صور الدين والمتدينين شائهة شائبة.

(1) . الموافقات (246/2)

(2) . قال الهيثمي: رواه الطبراني و رجاله رجال الصحيح . المجمع (166/6)

(3) . أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية . د/ زياد محمود العاني (16)

جاء في " نصيحة الملوك ": (أنهم أكثر الناس انشغالا وأعظمهم أتقالا وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم، ومشاهدة أقاصي أعمالهم بأعينهم، وليس كل مستعان به يعين ولا كل وال يستقل بما يلي، وأنهم أبعد الناس عن مجالسة العلماء وحضور مجالسة الفقهاء). (1)

سؤال: هل كان لسفراء النبي صلى الله عليه وسلم دور في نشر الدعوة الإسلامية بين هؤلاء الزعماء؟

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب – رحمه الله – : (لقد كان هدف السفارات النبوية هو الدعوة الى إعتناق الإسلام، فكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم إلى الملوك و الأمراء في زمانه دعاة إلى الإسلام و كانوا صفة الدعوة...

ودراسة سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم تستحق العناية الفائقة من أجل الأسوة الحسنة المقتبسة من النبي صلى الله عليه وسلم في أسلوب اختيار السفراء من أجل ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم...

والعبرة من عرض سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم للحاضر والمستقبل، تكون للذين يملكون القرار في تولية السفراء حتى يحسن الملوك والرؤساء والأمراء اختيار السفراء ومن يعمل معهم بهدي سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم...

والعبرة أيضا تكون لكل فرد من أفراد الأمة، ليعرف كيف ينبغي أم تكون سمات السفير الصالح ليكونوا قادرين على النهوض بواجباتهم من أجل مصالح أمتهم وبلادهم). (2)

إن الإسلام يدعو إلى معرفة قدر الرجال والإقرار بها تأليفا لقلوبهم، وهو المنهج الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل من كان ذا شأن في قومه.

فهذا عدي بن حاتم النصراني و هو ابن حاتم الجواد المشهور وكان شريفا في قومه يروي عن نفسه فيقول:

(1) . نصيحة الملوك (51)

(2) . السفارات النبوية (270 . 271) . بتصرف

... فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فدخلت عليه و هو في مسجده فسلمت عليه، فقال: (من الرجل؟) فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بي إلى المدينة، فوالله إنه لعامد بي إليه . أي قصد بي إلى الدار . إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلا فكلمته في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك ! ثم مضى بي صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل تناول وسادة من آدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال: (إجلس على هذه) فقلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: (بل أنت) فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض).⁽¹⁾

وفعلا كان هذا السلوب في التعامل - مع حسن التعريف بالإسلام - سببا في هداية هذا الرجل الزعيم إلى الإسلام.

بل لقد بقي قدر هذا الرجل معروفا و محفوظا حتى بعد إسلامه، فقد روى البخاري عن عدي بن حاتم قال: (أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلا رجلا و يسميهم فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال: بلى أسلمت إذ كفرنا، و أقبلت إذ أدبرنا، ووفيت إذ غدروا، و عرفت إذ أنكروا، فقال عدي: فلا أبالي إذا)⁽²⁾

قال بن حجر: (فقال عدي: فلا أبالي إذا: أي: إذا كنت تعرف قدري فلا أبالي إذا قدمت علي غيري)⁽³⁾

ومثلما يحرص الإسلام على إنتقاء الأسلوب الأمثل في دعوة هؤلاء الزعماء، فهو يحرص أيضا على إنتقاء اسلوب النصح لهم بطريق يسقط هيبتهم أمام عامتهم.

-
- (1) . مصنف ابن أبي شيبة (342/7) (36606)، و الإصابة (471/4)
 - (2) . صحيح البخاري . كتاب: المغازي . باب: قصة وفد طيء (129/8) (43949)
 - (3) . فتح الباري (129/8)

روى عياض بن غنم الأشعري (1) رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية و ليأخذ بيده فليخل به، فان قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي عليه) (2)

- لماذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على دعوة الزعامات الدينية من خلال حديث البخاري (لو آمن بي عشرة من اليهود...)?

تكاد تكون الزعامات الدينية هي الأكثر تأثيرا في أتباعها و من خلال هذا الحديث يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته الشديدة في استجابة أحبار اليهود لدعوته كما يدل على ذلك ظاهر الحديث.

قال الإمام النووي: (المراد: عشرة من أحبارهم)، (3) إذ تمنى رسول الله أن يسلم لدين الله أقطاب اليهود وزعاماتهم الدينية، وذلك لما لهم من كبير الأثر في أقوامهم وأتباعه.

قال ابن حجر: (والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود، ومن عداهم كان تبعا لهم فلم يسلم منهم إلا قليل، كعبد الله بن سلام وكان من المشهورين بالرئاسة في اليهود عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بني النظير أبو ياسر بن أخطب وأخوه حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ورافع بن أبي الحقيق، ومن بني قينقاع عبد الله بن حنيف وفنحاص ورفاعة بن زيد.

فهؤلاء لم يثبت إسلام أحد منهم وكان كل منهم رئيسا في اليهود، ولو أسلم لاتبعه جماعة منهم). (4)

(1) — هو عياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد القرشي أبو سعيد، له صحبة، أسلم قبل الحديبية و شهدها، كان صالحا فاضلا، و كان يسمى زاد الركب، يطعم الناس زادهم فإذا نفذ نحر لهم جملة توفي سنة 20 هجرية، أنظر: أسد الغابة (164/4 . 165)

(2) — أخرجه الحاكم في مستدركه — كتاب: معرفة الصحابة — باب: ذكر عياض بن غنم الأشعري رضي الله عنه (290/3)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرج، قال الذهبي: فيه ابن رزيق والبيهقي في سننه، كتاب: قتال أهل البغي — باب: النصيحة لله و لكتابه و رسوله و للأئمة المسلمين و عامتهم و ما على الرعية من إكرام السلطان المقسط (164/8) (16437)

(3) . صحيح مسلم بشرح النووي (136/17)

(4) . فتح الباري (350/7)

إن استجابة هذه الزعامات الدينية لدعوة الإسلام تعني إزاحة ركاب كبير من التحريف والتشويه عن أذهان وعقائد الآلاف من الأتباع وتخليص لهم من ضغط أولئك "الرموز" الدينين الذين أعطوا لأنفسهم سلطات كبيرة ما كان الدين الحق ليعطيهم إياها.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُودُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ التوبة 34.

وذلك لأنهم يأكلون الدنيا بالدين و مناصبهم ورئاستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إستمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرئاسات). (1)

واعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب الدعوة تجاه هؤلاء الرموز من اقطاب رجال الدين إنما كان ينطلق من فكرة قرآنية تنسجم مع خط الأديان المشترك الذي ينطلق من فكرة أصيلة ترفض كل امتياز لأي بشر كان!

فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لكل الناس الذين يدعوهم أنه ليس لأي شخص حق الطاعة المطلقة أمام طاعة الله تعالى ولو كان نبيا، فالعبودية لله و حده قال تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ٨٠) آل عمران 79 . 80

وكان من ثمار دعوته صلى الله عليه وسلم لرجال الدين أن آمن به من آمن فكان فتحا للإسلام و المسلمين، ومن كفر منهم فقد أقام عليه رسول الله الحجة (...لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ... ٤٢) الأنفال 42 .

ومن بين هؤلاء الذين استجابوا الحبر اليهودي عبد الله بن سلام الذي يروي الإمام أحمد في مسنده قصة إسلامه:

(1) . تفسير ابن كثير (102/3)

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: (إنطلق النبي صلى الله عليه وسلم و أنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر اليهود أروني إثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يحط عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه) فأسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال (أبيتم، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي، آمنتم أم كذبتم) ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج، فإذا برجل من خلفه فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل فقال ذاك الرجل: أي رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله ولا أفقهه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإني أشهد بالله أنه نبي الله الذي تجدون في التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه وقالوا فيه شرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتم لن نقبل منكم قولكم، قال فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله وأنا وابن سلام⁽¹⁾، فأنزل الله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكْفَرَ تُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرَ تُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠). (2)

قد كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للزعامات الدينية من غير المسلمين متعددة الحكم غزيرة الفوائد إذ كان يهدف إلى كسب هؤلاء الأحرار و الرهبان و كسب من وراءهم من أتباع، كما كان يهدف إلى تحطيم كل الأصنام التي تعبد من دون الله.

إننا إذا تأملنا أبعاد هذا الأسلوب النبوي في دعوة الزعماء و العلماء من غير المسلمين وجدنا بالحجة العملية و النتائج الواقعية لهذا الأسلوب، أن الحق يجد مكانه في قلب المدعو . بإذن الله تعالى . كائنا ما كان موقعه أو مركزه، بعد تقديم السبب بحسن عرض الإسلام بأمثل الأساليب، فإن لم تثمر تلك الأساليب و أبى أولئك إلا الكفر يكون المسلم قد أدى ما عليه...

على أن يدرك المسلم أن هذا "الحبر" أو "الراهب" لا يعدو أن يكون إلا إنسانا فيه نوازع الخير ونوازع الشر، وأسلوب التعامل الحكيم القائم على الدعوة بالعلم والفهم والحجة

(1) — مسند أحمد (25/6) (24030) و مسند الشاميين للطبراني (77/2) (948) والحاكم في مستدرکه (410/3) . 416) و قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ووافقه الذهبي، و ذكره الهيثمي بهذا اللفظ و قال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، المجمع (10517 . 106)

(2) . سورة الأحقاف . الآية (10)

والحكمة هو الذي يحرك في هذا الحبر والراهب نازع الخير، مثلما أفلح رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن سلام وغيره.

فمنهج رسول الله في الدعوة هو منهج قرآني حكيم يكشف عن نوازع النفوس البشرية وما تنطوي عليه من خير أو شر، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، كقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢﴾ المائدة (1)82

يقول الطبري: (إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل إجتهد في العبادة وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون عن المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه أنهم أهل دين واجتهد فيه ونصيحة لأنفسهم في ذات الله وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسول ومعاندة الله في أمره وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه). (2)

ويقول الزمخشري: (بأن منهم قسيسين و رهبانا) أي: علماء و عباد و أنهم قوم فيهم تواضع و استكانة ولا كبر فيهم، و اليهود على خلاف ذلك. (3)

وبشيء من التأمل العميق لهذا الأسلوب النبوي البديع وهو يدعوا الرموز الدينيين من غير المسلمين نلمس إحياء آخر عظيم الأهمية وهو أن الدعوة للرهبان والأخبار تشمل - في إحيائها - العلماء المسلمين الذين يجعلون لأنفسهم مركزا فوقيا يستغلون به على الناس، ويستغلون تمثيلهم للدين في تكديس الثروات بالباطل، كما قال سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى) (4)

(1) . سورة المائدة . الآية (82)

(2) . تفسير الطبري (506/10 . 506)

(3) . الكشف (668/1)

(4) . تفسير ابن كثير (102/3)

إن الرسالات لم تنزل لتخلق من الناس الذين يحملونها أو يمثلونها طبقة جديدة تتمتع بالإمتميازات الكبيرة بدون حق وتمارس كل شيء دون حساب، بل انطلقت لتحرر الإنسان من عبودية أخيه الإنسان ولتمنحه الشعور بالكرامة المنبثقة عن الكفاءة والعمل الصالح ليسعى إلى الحق من موقع الإحساس بحريته الفكرية من دون خضوع لبشر أو لغيره، وليقف بين يدي الله مع كل البشر في وحدة الإخلاص والطاعة والعبودية المطلقة الخالصة. (1)

(1) . الحوار في القرآن لمحمد حسين (131/1)

رابعاً: سمو الأخلاق الإسلامية في ضوء السنة النبوية

المبحث الأول: تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً

الأخلاق جمع خلق، والخلق اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خلق عليها، قال ابن منظور: (الخلق بضم اللام وسكونها هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أن سورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها)¹

ويقول صاحب كتاب القاموس: (والخلق بالضم وبضميتين: السجية والطبع والمروءة والدين)²

وأما في الاصطلاح، فقد عرف الجرجاني الخلق بأنه (عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقاً سيئاً).³

وقد عرفه ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق بقوله: (الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر وروية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب، أو كالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء...)⁴.

والمقصود بسمو الأخلاق الإسلامية هو تلك السجايا والشمائل التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم الغاية من بعثته الشريفة فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).⁵

¹ لسان العرب (86/10).

² القاموس المحيط (881).

³ التعريفات (101).

⁴ تهذيب الأخلاق (41).

⁵ أخرجه البيهقي (10/191) (20571)، والبخاري في المسند (2/476) (8949)، وأخرجه الحاكم بلفظ (لأتمم صالح الأخلاق) (2/670) (4221) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأخرجه مالك بلفظ (لأتمم حسن الأخلاق) (1609).

وفي ذلك دلالة على أهمية الخلق، إذ بالرغم من أنه ليس أهم شيء بعث به رسول الله من أجله، فالعقيدة أهم منه، والعبادة أهم منه !

وبيان ذلك أن الخلق هو أبرز ما يراه الناس ويدركونه من سائر أعمال الإسلام، فالناس لا يرون عقيدة شخص لأن محلها القلب كما لا يرون كل عباداته، لكنهم يرون أخلاقه ويتعاملون معه من خلالها، وبالتالي فإنهم سيقومون دينه من خلال تعامله وخلقه، لذلك جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم سمو الأخلاق هو أساس الخيرية والتفاضل يوم القيامة ...

المبحث الثاني: الأحاديث الواردة وأقوال الشراح فيها

روى البخاري في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنقبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي قدمت علي و هي راغبة أفأصل أمي ؟

قال: (نعم صلي أمك). (1)

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له: (أسلم فنظر إلى أبيه و هو عنده فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم و هو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار). (2)

— روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، ففهمتها فقلت: عليكم السام و اللعنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مهلا يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله) فقلت:

(1) . صحيح البخاري . كتاب: الهبة و فضلها . باب: الهدية للمشركين (291/5) (2620)

صحيح مسلم . كتاب: الزكاة . باب: فضل النفقة و الصدقة على الأقربين و الزوج و الأولاد والوالدين و لو كانوا مشركين (2/ 296)، و مسند أحمد (347/6) (26985)، و سنن البيهقي . كتاب: الزكاة . باب: صدقة النافلة على المشركين و على من لا يحمد فعله (191/4)

(2) — صحيح البخاري — كتاب: الجنائز — باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه و هل يعرض على الصبي الإسلام (280/3) (1356)، و السنن الكبرى للنسائي (356/4) (7500) بلفظ قريب، و مستدرک الحاكم — كتاب: الجنائز (363/1) بلفظ قريب.

يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فقد قلت و عليكم)
(1)

الشرح: إن حديث أسماء رضي الله عنها مع أمها يعطي الصورة العملية لحسن التعامل الإسلامي و الخلق الرفيع الذي يدعو إليه الإسلام، إذ المسلم مكلف بأن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضائل لا ترقى إليها شبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم و غيره و السماحة و الوفاء و المروءة و التعامل و الكرم.

بل إن الإسلام لا يعتبر حتى الكفر مانعا من إساءة المعروف و حسن التخلق، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فوصف الكفر ليس بمانع من الدفع إليهم)⁽²⁾، أي: دفع الصدقة إليهم، و على ذلك كان عمل الصحابة رضي الله عنهم.

روى عبد الله بن دينار قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: رأى عمر حلة سيرة تباع، فقال يا رسول الله إبتع هذه والبسها يوم الجمعة و إذا جاءك الوفود، قال: (إنما يلبس هذه من لا خلاق له)، فأوتي النبي صلى الله عليه وسلم منها بحلل، فأرسل الى عمر بحلة، فقال: كيف ألبسها و قد قلت فيها ما قلت؟ قال: (إني لم أعطكها لتلبسها و لكن تبيعها أو تكسوها) فأرسل بها عمر الى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم⁽³⁾

فهذا عمر بن الخطاب لم ير في كفر أخيه مانعا له من إساءة المعروف إليه كيف لا و رسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن للصحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر أن تحسن معاملة امها المشركة " قبيلة بنت عبد العزى " ⁽⁴⁾ لأن سماحة الإسلام تدعو الى حفظ حقوق الآخرين و لو كانوا كافرين.

(1) . صحيح البخاري . كتاب: الإستئذان . باب: كيف الرد على أهل الذمة بالسلام (41/11) (6356)

صحيح مسلم . كتاب:السلام . باب: النهي عن إبتداء أهل الكتاب بالسلام (4/1706) (2165)

(2) . أحكام أهل الذمة (300/1)

(3) . صحيح البخاري . كتاب: الهبة وفضلها . باب: الهدية للمشركين (290/5) (619)

(4) . فتح الباري (233/5)

فالقرآن الكريم هو التصور العام الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك ضمنه و هو القائل: (لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٨) الممتحنة: 8.

وحفاظا على الأخلاق الإسلامية حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على صلة الرحم بين البنت المؤمنة وأمها الكافرة، قال ابن حجر ب: جواز صلة القريب و لو كان على غير دين الواصل. (1)

كما أورد قول الخطّابي: (فيه أن الرّحم الكافرة توصل بالمال ونحوه كما توصل المسلمة) (2)

ويمثل ذلك قال النووي: (وفيه جواز صلة القريب المشرك) (3)

ومن ملامح سمو الأخلاق الإسلامية في مدرسة النبوة تلك الزيارة التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم للغلام اليهودي المريض، فهو السلوك النابع من تلك الرحمة التي قذفها الله تعالى في قلوب عباده المؤمنين، فهو شعور يجعل المسلم يرق لآلام الخلق و يسعى لإزالتها، و هذه الرحمة ليست إلا كمالا في الطبيعة الإنسانية، أما القسوة فهي ارتكاس بالفطرة و نزول بها إلى أسوأ المراتب.

قال ابن حجر تعليقا على حديث زيارة النبي الكريم للغلام اليهودي المريض: (وفي الحديث جواز استخدام المشرك و عيادته إذا مرض و فيه حسن العهد) (4)

وقد سئل الإمام أحمد عن حكم عيادة الكفار فقال: (أليس قد عاد النبي صلى الله عليه وسلم اليهودي ودعاه إلى الإسلام) (5)

(1) . المصدر نفسه (281/6)

(2) . المصدر نفسه (234/5)

(3) . صحيح مسلم بشرح النووي (97/4)

(4) . فتح الباري (221/3)

(5) . أحكام أهل الذمة (200/1)

فهذه السلوكات التي يتعامل بها المسلمون مع غيرهم هي التي تظهر ما في الإسلام من سمو اخلاق و فضيلة و إحسان و رحمة وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغبا للأجانب في الإسلام، كما كان خلافهم أعظم منفر لهم منه.

و ارتقاء بالأخلاق الإسلامية لم يفرق هذا الدين العظيم بين نفس المسلم و نفس الكافر، فقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام لجنائز رآها، و لما بدى التعجب من أصحابه كيف يقوم لها و هي ليهودي ! ؟ كان جوابه الشريف: (أليست نفسا !!).

روى البخاري في صحيحه ان سهل بن حنيف و قيس بن سعد بن عبادة كانا بالقادسية، فمرَّ عليهما بجنائز فقاما، فقيل لهما: إنه من أهل الأرض، فقالا: مرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنائز فقام، فقيل له: إنه يهودي ! فقال: (أليست نفسا)⁽¹⁾

قال ابن حجر: (و مقصود الحديث أن لا يستمر الإنسان على الغفلة بعد رؤية الموت لما يشعر ذلك من التساهل بأمر الموت، فمن ثمة استوى فيه كون الميت مسلما أو غير مسلم)⁽²⁾

وتأكيدا على الأخلاق الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين ذهب أهل العلم الى جواز مواساتهم ف مصابهم و ذلك بتعزيتهم في موتاهم، عن ابن جريج و الثوري قالوا: (يعزي المسلم الذمي بقوله: لله)

السلطان والعظمة عش يا ابن آدم ما شئت و لا بد من الموت).⁽³⁾

و كان أبو عبد الله بن بطة يقول: (يُقال في تعزية الكافر: اعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدا من أهل دينك)⁽⁴⁾، و للمسلم أن يختار من الأدعية ما يراه مناسبا مما ليس فيه دعاء للميت ولا قوة للحي.

(1) . صحيح البخاري . كتاب: الجنائز . باب: من قام لجنائز يهودي (231/3) (1312)

(2) . وصحيح مسلم . كتاب: الجنائز . باب: القيام للجنائز (661/2) (961)

(3) . فتح الباري (232/3)

(4) . مصنف عبد الرزاق . باب: تعزية المسلم الذمي (42/6) (9947)

وعلى المسلمين أن يفهموا جيدا هذه السنة الربانية و هم يتعاملون مع غيرهم، ولا يشفع لهم — إن عدموا الرحمة والرفق وحسن الخلق — أنهم يدعون إلى الإسلام و أن على الناس أن يتحملوا القسوة و الغلظة لأنهم يعملون لمصلحتهم و يدعونهم الى الحق .

فالناس لا يميلون إلى دعاة الإسلام إلا إذا كانوا رحماء بهم متواضعين معهم يخصونهم بوجوه البر و الشفقة و المعونة بدون تكبر أو استعلاء أو خشونة أو سوء خلق.

فالناس في حاجة إلى كنف رحيم و إلى رعاية فائقة و إلى بشاشة سمحة وإلى ود يعمهم وحلم لا يضيق بجهلهم و ضعفهم و نقصهم، إنهم في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم، يحمل همومهم و يجدون عنده دائما الإهتمام والرعاية والعطف والسماحة.(1)

وقد استطاع خصوم الإسلام المعاصرون ان يسحبوا البساط من تحت أقدام المسلمين برفعه شعار "الله محبة " و يجذبوا اليهم آلاف المسلمين.(2)

لقد أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصول وقواعد الخلق الرفيع بما سنه من أحكام و تشريعات و صدق الله في كتابه العزيز (و ما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) الأنبياء .107

إذ جسد رسول الله صلى الله عليه و سلم الإنسانية الكاملة في أخلاقه و معاملاته مع المسلمين وغير المسلمين.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: (و لقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه و يخفف أحزانه و يرثي لخطاياهم و يستميت في هدايته و يأخذ بناصر الضعيف و يقاتل دون قتال الأم عن صغارها، فأرسل حمدا صلى الله عليه وسلم وسكب في قلبه من

(1) . المعنى والشرح (410/2)

(2) . السنن الإلهية . للدكتور عبد الكريم زيدان (248) . بتصريف

وذلك من خلال الهيئات و الجمعيات التصيرية المشبوهة المزروعة في معظم بلدان العالم الإسلامي و المدعومة بترسانة من الوسائل المادية و البشرية لتمسح عن الأيتام دموعهم و تخفف عن المرضى آلامهم، و بين هذه وتلك يمرر مشروع التصير باسم " الله محبة "، فأين المسلمون !! ؟

العلم و الحلم و في خلقه من الإيناس و البر، و في طبعه من السهولة والرفق، وفي يده من السخاوة و الندى ما جعله أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة و ارحبهم صدرا (1)

أما في حديث عائشة رضي الله عنها فيبدو التعامل بالمثل السامية و الأخلاق الفاضلة جليا من رسول الله صلى الله عليه وسلم و هو يتلقى من اليهود سوء خلق.

كيف لا و هو النبي العظيم الذي ما فتئ يوصي أصحابه و أمته بحسن الخلق:

روى الإمام مالك في " الموطأ " أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (لآخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز (2) أن قال: (أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل) (3)

وعن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إتق الله حيثما كنت، و أتبع السيئة الحسنة تمحها و خالق الناس بخلق حسن) (4)

سؤال: إذا تعامل المسلم مع غيره ثم ظهر منه سوء خلق و إنحراف طبع، فهل له أن يسايره في هذا الإنحدار الخلقي بدعوى الرد بالمثل ؟

والجواب: أن منطق الإسلام في التعامل مع الناس هو الدفع بالتي هي أحسن و عدم رد السيئة بالسيئة، و الحذر من الإستراج نحو الخطأ و المشي وراء لمنحدرين خلقيا، ومن توجيهات القرآن الكريم في ذلك قوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٦٣) الفرقان 63.

قال القرطبي: (أي يقول للجاهل كلاما يدفعه به برفق و لين) (5)

(1) . خلق المسلم (304)

(2) . الغرز: موضع الركاب من رحل البعير، أي عند سفره إلى اليمن رسولا من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير . مادة (غرز) (359/3)

(3) . موطأ مالك . كتاب: حسن الخلق . باب: ما جاء في حسن الخلق (902/2)

(4) . سنن الترمذي . كتاب: البر و الصلة . باب: ما جاء في معاشره الناس (313/4) (1987)

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(5) . تفسير القرطبي (69/13 . 70)

وقال ابن كثير: (إذا سفه عليهم الجهال بالسيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون و يصفحون و لا يقولون إلا خيرا، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما) (1)

فالمسلمون في جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة لا يلتفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء، ولا يشغلون وقتهم و جهدهم بالإشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك، ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين... لا عن ضعف ولكن عن ترفع، ولا عن عجز ولكن عن استعلاء عن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا في ما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن الهاترة لما هو أهم و أكرم وأرفع) (2)

وكذا قوله تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤) فصلت 34

قال ابن كثير: (أي من أساء اليك فادفعه بالإحسان اليه، فإذا فعلت قاداته تلك الحسنه اليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب اليك) (3)

فالصبر و التسامح و الإستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر يرد النفوس الجامحة الى الهدوء و الثقة، فتنقلب الخصومة إلى الولاء و من الجماح إلى اللين... غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف و يسمح و هو قادر على الإساءة والرد، و هذه القدرة ضرورية لتؤتي السماجة أثرها حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفا، ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا. (4)

لهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحفاظ على سمو الأخلاق الإسلامية وإن ساءت أخلاقهم معنا وموقفه مع اليهود الذين سلموا عليه بما يفيد الموت خير دليل، كما أنه

(1) . تفسير ابن كثير (259/4)

(2) . في ظلال القرآن لسيد قطب (2578/5)

(3) . تفسير ابن كثير (224/5)

(4) . في ظلال القرآن (3121/5)

أنكر على عائشة رضي الله عنها ردها بالتعنيف على هؤلاء اليهود و نهاها عن الغلظة في الكلام و أمرها بالرفق واللين في الأمر كله (1)

وعلى المسلم أن يدرك حقيقة ما، وهي أن لا يكون كل الناس طبيين مسالمين، فانه سيجد فيهم الغليظ واللئيم والظالم والمجرم.

يقول الإمام ابن حزم الأندلسي رحمه الله: (الناس في أخلاقهم على سبع مراتب: فطائفة تمدح في الوجه و تدم في المغيب، وهذه صفة أهل النفاق من العيابين، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم و طائفة تدم في المشهد والمغيب وهذه صفة أهل السلاطة و الوقاحة من العيابين، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع، وطائفة تدم في المشهد وتمدح في المغيب و هذه صفة أهل السخف، وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ويثنون بالخير في المغيب، أو يمسكون عن الذم، وأما العيابون البرآء من النفاق و الوقاحة فيمسكون في المشهد و يذمون في المغيب، وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح و عن الذم في المشهد و المغيب، ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا) (2)

كما يقول ابن القيم رحمه الله . مبينا أصناف الناس مع المسلم . : (إن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعاد له معارض، و عليه في كل واحد من هذه واجب، فواجبه في أمرهم و نهيمهم أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم و صلاح شأنهم، و ينهاهم عن ضده وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منه لنفسه، فقد قال تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ١٩٩) الأعراف 199. (3)

وقد انتبه أعداء الإسلام إلى التراجع الخفي الظاهر في حياة المسلمين ومدى اتساع الهوة بينهم وبين ما يدعو اليه دينهم.

يقول مارسيل بوزار: (ويشكل الخلق الإسلامي جزءا لا ينفصل عن الدين الذي هو في نظر السنة: طريقة التعامل مع الآخرين، ولن نحكم إلى أي مدى هو مطبق ومحترم في

(1) . في ظلال القرآن (3121/5)

(2) . الأخلاق والسير في مداواة النفوس (47 . 48)

(3) . مدارج السالكين (290/2)، و الآية من سورة الأعراف برقم 199.

أيماناً، فقد ذهب مصلح إسلامي كبير⁽¹⁾ إلى حد القول بأن حياة المسلمين أصبحت في الوقت الحاضر "مظاهرة ضد دينهم"

فقد يكون ضعف الإيمان و انحرافاته مماثلة في الواقع لما قد تكونه الرذائل المتناقضة للفضائل المتعلمة من الله [تعالى] و النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] و هي رذائل تسيء إلى المسلمين: فساد العقيدة، و الجهل الفكري، و الظلم و الإستبداد، والخيانة والغش و المخادعة حتى حيال الله [تعالى].⁽²⁾

(1) . يقصد الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد (195 . 200)

(2) . إنسانية الإسلام لمارسيل بوازار . ترجمة د / عفيف دمشقية (63)

خامسا: حرمة المسلمين في ضوء السنة النبوية:

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما). (1)

— روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح و حدثنا يحيى بن يحيى قال: قرأت على مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم). (2)

— روى البخاري في صحيحه أن عتبان بن مالك و هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدرا من الأنصار أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله قد أنكرت بصري و أنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سار الوادي الذي بيني و بينهم لم أستطع ان آتي مسجدهم فأصلي بهم ووددت يارسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتخذة مصلى، قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سأفعل ان شاء الله) قال عتبان: فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم و أبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله فأذنت له، فلم يجلس حتى دخل البيت ثم قال: (أين تحب أن أصلي من بيتك؟) قال: فأشرت له الى ناحية من البيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر فقمنا فصفنا فصلى ركعتين ثم سلم، قال: و حبسناه على خزيرة صنعناها له قال: فأب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد فاجتمعوا فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشن؟ فقال بعضهم: ذلك منافق لا يحب الله و رسوله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقل ذلك ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله) قال: الله ورسوله أعلم، قال فإننا نرى و جهه و نصيحته إلى

(1) . صحيح البخاري . كتاب: الأدب . باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (360/10) (6104)

. صحيح مسلم . كتاب: الإيمان . باب: حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (79/1)

سنن الترمذي . كتاب: الإيمان . باب: من رمى أخاه بكفر (23/5) (2637)

مسند أحمد (60/2) (2559)

موطأ مالك . كتاب: الكلام . باب: ما يكره من الكلام (984/2) (1777)

(2) — صحيح مسلم — كتاب: البر و الصلة و الأداب — باب: النهي عن القول: هلك الناس (4/2024)، سنن أبي

داود - كتاب: الأدب (296/4) (4983)، مسند أحمد (2/272) موطأ مالك - كتاب: الكلام - باب: ما يكره من

الكلام (984/2) (1778)

المنافقين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) (1)

— روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من حمل علينا السلاح فليس منا). (2)

الشرح: من المبادئ الإسلامية المهمة في التعامل بين المسلمين، إلتماس المعاذير لهم و ترك الطعن و التجريح لهم، و أن يدرك المسلم أن لأخيه المسلم حرمة لا يجوز له إنتهاكها وإن كان في خلاف مع أخيه في فكر أو منهج، وأن يتجنب المخاصمة و اللدد فيها لأنها ليست من شيم المسلمين، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله — متحدثاً عن صفاء الداعية المسلم — : (... لا يخاصم بلسانه، ولا ينوي الخصومة بقلبه، ولا يخطرأها على باله، هذا في حق نفسه، أما في حق ربه فالفتوة أن يخاصم بالله وفي الله ويحاكم إلى الله كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح " وبك خاصمت واليك حاكمت " و هذه درجة فتوة العلماء الدعاة الى الله تعالى). (3)

والأحاديث التي بين أيدينا فيها التأسيس النبوي لقواعد التعامل مع المسلمين، وأهمها: حفظ حرمتهم و مراعاة حقوقهم و الحذر من منزلقات سوء التعامل معهم.

وفي حديث البخاري الأول تحذير نبوي إلى المسلم من أن يقع في أخطر المزالق وأضرها عليه و على أمته، و هو أن يتمادى سوء التعامل إلى حد تضيع فيه حرمة المسلمين إلى أن يكفر فيه بعضهم بعضاً، فيتراشقون بأحكام التكفير و التضليل دون ضابط من شرع

(1) . صحيح البخاري . كتاب: الصلاة . باب: المساجد في البيوت (638/1) (425)

صحيح مسلم — كتاب: المساجد و مواضع الصلاة — الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (455/1) (33)، مسند أحمد (449/5) (23821)، سنن البيهقي — كتاب: آداب القاضي — باب: لايقبل جرح فيمن ثبتت عدالته (124/10)

(2) — صحيح البخاري — كتاب: الفتن — باب: قوله صلى الله عليه وسلم: (من حمل علينا فليس منا (7070) (13/29) (صحيح مسلم — كتاب: الإمام — باب: قوله صلى الله عليه وسلم: (من حمل علينا فليس منا)

(98) (1/98) وسنن الترمذي . كتاب: الحدود . باب: فيمن شهر السلاح (59/4) (1459)

السنن الكبرى (النسائي) (311/2) (3563)

(3) . مدارج السالكين (344/2)

أو عقل، وظاهر الحديث فيه الترهيب الشديد من هذا المنزلق الخطير، يقول الإمام القسطلاني - مفسرا علة هذا الترهيب من تضييع حرمة المسلمين - : (لأنهم إن كان القائل صادقا في نفس الأمر فالمرمي كافر، وإن كان كاذبا جعل الرامي الإيمان كفرا، و من جعل الإيمان كفرا فقد كفر) (1)، حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوبة من يضيع حرمة أخيه المسلم بالتكفير دون أي ضابط، أن يبوء بها أحدهما، فيستطرد الإمام القسطلاني شرحه للحديث قائلا: (... فقد باء: أي رجع بالكلمة أحدهما، قيل المراد بأحدهما القائل خاصة، و هذا على مذهبهم في استعمال الكناية و ترك التصريح بالسوء، كقول الرجل لمن أراد أن يكذبه: و الله إن أحدنا لكاذب، و يريد خصمه على التعيين، و حمله بعضهم على المستحل لذلك إذ المسلم لا يكفر بالمعصية، أو المراد: يرجع عليه التكفير، إذ كأنه كفر نفسه لأنه كفر من هو مثله) (2)

وما قد يقع بين المسلمين من إختلاف في الإجتهدات و تعدد في الآراء لا يجوز بحال أن يوصلهم الى رمي بعضهم بعضا بكل نعوت النقائص و الضلالة لأن الخطأ في الإجتهد واردة ولا يصح التشنيع عليه.

وها هو الإمام الشاطبي رحمه الله يحذر المسلمين من أن يشنعوا على بعضهم أو أن يبلغ بهم الأمر حتى إلى التشنيع بعلمائهم، فيقول رحمه الله: (... إن زلة العالم لا يصح إعتادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليدا له وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع ولذلك عُدت زلة... كما أنه لا ينبغي أن يُنسب صاحبها إلى التقصير و لا أن يُشنع عليه بها ولا ينتقص من أجلها) (3)

وفي مدرسة النبوة تعلم المسلمون أنهم مأمورون بمراعاة و حفظ حقوق بعضهم، فلم ينتهكوا حرمتهم بالتكفير أو التضليل، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطأ بين يديه الصحابة الكرام في مسائل عديدة فما كفرهم ولا فسقهم.

(1) . إرشاد الساري (66/9)

(2) . المصدر نفسه (66/9)

(3) . الموافقات (168/4)

قال ابن حزم رحمه الله: (.. و كذلك أخطأ جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في حياة رسول الله صلى الله عليه و سلم في الفتيا فبلغه عليه الصلاة و السلام فما كفر بذلك احدا منهم و لا فسقه و لاجعله بذلك أثماً). (1)

لأن فتح باب الطعن في المسلمين لمجرد وقوعهم في الخطأ او لإختلاف في الفكر أو الإجتهداد قد تطور إلى أن تطاول جهال و عوام المسلمين على حرمة علمائهم، و إلى ذلك أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قائلاً: (فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات و إنما أصل هذا من الخوارج و الروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين).

وقد اتفق أهل السنة و الجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل يؤخذ من قوله و يترك إلا الرسول صلى الله عليه وسلم، و ليس كل من يُترك بعض كلامه لخطأ أخطأه لا يُكفر و لا يُفسق بل ولا يَأثم (2)

كما يقول ابن أبي العز: (فيجب على كل مسلم بعد موالاته الله و رسوله موالاته المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر و البحر، و قد أجمع المسلمون على هدايتهم و درايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماءؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم فإنهم خلفاء الرسول من أمته و المحيون لما مات من سنته) (3)

سؤال: هل الجهل ببعض الأمور العقدية أو الأحكام الشرعية يستلزم التكفير أو التأنيث أو الإساءة إلى حرمة الجاهل والمخطئ؟

و الجواب: أن رفع الملام عن المخطئين من اصحاب الإجتهداد هو منحة ربانية أصلاً تكرم بها الله تعالى على المسلمين، فكيف يسلب المسلم منحة الله على أخيه المسلم المخطئ !

(1) . الفصل في الملل و الأهواء و النحل (3/354)

(2) . مجموع الفتاوى (100/35)

(3) . شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (377)

قال تعالى: (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) الأحزاب 5

قال ابن تيمية رحمه الله: (و لا ريب أن من اجتهد في طلب الحق و الدين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم و أخطأ في بعض ذلك فإله يغفر له خطأه تحقيقاً للدعاء الذي استجاب له الله لنبيه و للمؤمنين حيث قال: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...) (٢٨٦) (1)

فالمطلوب من المسلمين هو العمل الجاد إلى إيصال الحق و صافي العلم إلى العوام من المسلمين بدل رميهم بالكفر و الضلال، ونصوص الشريعة كثيرة في بيان رفع الملام عن الجاهل ووجوب التنبيه إلى تعليمه قبل إدانته و تكفيره.

واستدلالاتنا من السنة النبوية على أن الجاهل ببعض الأمور لا يستلزم التكفير و إنما يستلزم التعليم و التفهيم، الحديث الذي ورد في صحيح البخاري و مسلم عن الرجل الذي قال:

إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحققوني ثم ادروني في الريح في البحر، فوالله إن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد، قال: ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: أدبي ما أخذت فإذا هوقائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب، فغفر له بذلك (2)

وتعليقاً وشرحاً لهذا الحديث يقول ابن تيمية رحمه الله:

فهذا رجل شك في قدرة الله و في إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يُعاد! و هذا كفر باتفاق المسلمين لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك و كان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك، و المتأول من أهل الإجتهد الحريص على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم أولى بالمغفرة من مثل هذا (3)

وعلى نفس الأمر استدل ابن حزم بمثل آخر فقال:

-
- (1) . دره تعارض العقل و النقل (103/2) . و الآية من سورة البقرة برقم 286.
 - (2) . صحيح البخاري . كتاب: التوحيد . باب: قال تعالى: " أنزله بعلمه و الملائكة يشهدون " (7508) (13/571)
 - صحيح مسلم . كتاب: التوبة . باب: سعة رحمة الله تعالى و أنها تغلب غضبه (2110) (4/2109)
 - (3) . مجموع الفتاوى (230/3 . 231)

وأبين شيء في هذا قول الله تعالى: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١١٢ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ١١٣) - المائدة 112-113.

فهؤلاء الحواريون الذين أتى الله عز وجل عليهم قد قالوا بالجهل لعيسى عليه السلام: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء!؟ و لم يبطل بذلك إيمانهم و هذا ما لا مخلص منه و إنما كانوا يكفرون لو قالوا ذلك بعد قيام الحجة و تبيينهم لها).⁽¹⁾

فمما يجب على المسلم مراعاته في تعامله مع غيره من المسلمين أن لا يندفع بتكفيرهم و إنما يراعي اختلاف أحوالهم و تباين ظروفهم من حيث انتشار العلم الشرعي في بلدانهم أو قصوره عنها، كما يراعي حال الأحكام الشرعية التي خالفها الناس من حيث ظهورها و اختفاؤها، فأن كان العلم الشرعي قليلا و البلد يسوده الجهل كان الواجب الشرعي على أهل العلم تعليم هؤلاء و إقامة الحجة عليهم لا تضليلهم و إدانتهم.

وقد ذكر شيخ الإسلام في هذا الباب أصلا عظيما وقاعدة جليلة يجب أن تكون نصب عين كل مسلم وهي "أن من ثبت إسلامه بيقين، لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة"⁽²⁾

إن خدمة الدين و نشر تعاليم الإسلام إنما تحتاج الى دقة النظر وكثير من الحذر والحيطة حتى لا يسيء الإنسان إلى اهل ملته من حيث يظن أنه يحسن، وأول مظاهر هذه الحيطة أن يحذر المسلم من الإساءة إلى حرمة المسلمين دون ضابط من شرع أو دين و قد كان علماء المسلمين يدركون هذا الأمر جيدا، وعن مثل هذا يقول الإمام العارف الشعراني:

وقد رأيت سؤالا بخط الشيخ شهاب الدين الأذرعي قدمه إلى شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله، و صورته: ما يقول سيدنا ومولانا شيخ الإسلام في تكفير أهل الأهواء والبدع؟ فكتب إليه: أعلم يا أخي وفقني الله و إياك أن الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جدا و كل من في قلبه إيمان يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا اله

(1) . الفصل في الملل و الأهواء و النحل (253/3)

(2) . مجموع الفتاوى (466/12)

إلا الله محمد رسول الله، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر، ومن كفر إنسانا فكأنه أخبر عن ذلك الإنسان بأن عاقبته في الآخرة العقوبة الدائمة أبد الآبدين وأنه في الدنيا مباح الدم و المال، لا يمكن من نكاح مسلمة و لا تجري عليه أحكام الإسلام في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في قتل مسلم أرجح في الإثم من ترك قتل ألف كافر(1)

سؤال: ما الذي يستفاد من حديث مسلم في نهيه صلى الله عليه وسلم عن قول الرجل: هلك الناس؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين منهج التعامل الذي يحفظ لهم أخوتهم ويصون حرمتهم، يعلمهم إحسان الظن بالآخرين وترك أسلوب الإدانة لهم أو الإستعلاء عليهم أو تتبع عوراتهم ونشر عثرتهم، و ظاهر الحديث فيه النهي الشديد عن مثل هذا الأسلوب في التعامل مع المسلمين.

قال الإمام النووي: (واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإضرار على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم و تقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر الله في خلقه) (2)

فالمطلوب من المسلم أن تكون مراقبته و متابعتة لنفسه أولاً، إذ عليه اتهام نفسه وعدم التسامح معها و دوام استشعار تقصيرها في جنب الله تعالى و في حقوق عباده، فتزكية النفس ليست من صفات المؤمنين الصادقين، و عن ذلك ينهانا الله تعالى فيقول: (فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) النجم 32، وقال أيضاً وهو يذم اليهود الذين يزكون أنفسهم بإدعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء و لا يظلمون فتيلاً) النساء 49

وقال الإمام الزرقاني: (إذا قال الرجل " هلك الناس " إعجاباً بنفسه و تيتها بعلمه و عبادته و إحتقاراً للناس فهو أهلكتهم أي أشدهم هلاكاً لما يلحقه من الإثم في ذلك القول، أو أقربهم إلى الهلاك لذمه الناس و ذكر عيوبهم) (3)

(1) . اليواقيت و الجواهر (113/2)

(2) . شرح النووي على صحيح مسلم (175/16)

(3) . شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (400/4)

من أعظم شعب الإيمان حسن الظن بالله و حسن الظن بالمسلمين، وفي مقابلهما: سوء الظن بالله وسوء الظن بالمسلمين، إذ الأصل هو حمل المسلم على الصلاح وأن لا يعامل بالإدانة ويحكم عليه بالهلاك.

إن مخاطبة الناس من برج والنظر إليهم من علو لم تكن من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من صفات صحابته و تابعيهم رضي الله عنهم، فقد كان أبغض الناس إليهم الباغين للبراء العثرات الذين لا هم لهم إلا كشف عورات المسلمين والتشنيع عليهم بأقسى الأحكام.

جاء في " عون المعبود " - شرحاً للحديث - : (أنّ الغالين الذين يؤيسون الناس من رحمة الله يقولون: هلك الناس: أي استوجبوا النار بسوء أعمالهم، فإذا قال الرجل ذلك فهو الذي أوجبه لهم لا الله تعالى، و لا عبرة بإيجابه لهم، فإن فضل الله واسع و رحمته تعمهم، أو هو الذي لمّا قال لهم ذلك وآيسهم، حملهم على ترك الطاعة والإنهماك في المعاصي، فهو الذي أوقعهم في الهلاك) (1)

إن المسلم الذي يرى في نفسه الصلاح و الإستقامة و الإجتهد في الطاعة ينبغي ان لا يزيده ذلك إلا تواضعاً لله تعالى و رافة على عباده الذين حادوا عن سواء السبيل، و لعل هذا هو الإستثناء الوحيد الذي يبيح للإنسان أن يقول (هلك الناس)، ويجعل نفسه على رأس هؤلاء الناس، نظراً لشدة التقصير و قلة الزاد.

قال الإمام النووي: (قالوا - أي العلماء - : فأما من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في امر الدين فلا بأس عليه) (2)

فيكون هذا الإستثناء بالترخيص في قول (هلك الناس) ليس إلا اتهاماً للنفس ورافة بالخلق، وهو ما يقابل الحالة الأخرى النهي عنها، و التي ليست إلا تركية للنفس وإدانة وإتهاماً للخلق.

(1) . عون المعبود (328/13)

(2) . شرح النووي على صحيح مسلم (176 . 175/16)

بل إن من المراتب العالية في الإيمان و الدين مرتبة الإنبساط مع الخلق وذلك بأن يسعهم المؤمن بقلبه وحسن خلقه، فقد جعل الإمام ابن القيم رحمه الله " منزلة الإنبساط " من منازل " إياك نعبد وإياك نستعين " وفسر ذلك بقوله (باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة، فخذ منهم ما أمر الله نبيّه أن يأخذه من أخلاق الناس وهو العفو) (1)

وكذلك كان منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع المخطئين والمذنبين فكان إذا أراد الإنكار على أشخاص بدر منهم الخطأ والذنب لا يواجههم بالإدانة والوعيد، وإنما يعتمد أسلوب اللطف مع التعميم كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول، و لكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا).

فقد كان يكره إشاعة عيوب المخطئين، لأن هدفه لم يكن سوى تطهير النفوس من المفسد التي وقعت فيها.

ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم العملية التي تتعد مطلقا عن أسلوب الإدانة والوعيد وتفيض حبا وحلما موقفه من ذلك الشاب الذي جاء يستأذنه في الزنى !؟

فقد جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إئذن لي في الزنى ! فأقبل القوم عليه و جرّوه قالوا: مه مه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ادنه) فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: (أتحبه لأمك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك.

قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم)، قال: (أتحبه لإبنتك؟) قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لبناتهم) قال: (أتحبه لأختك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لأخواتهم) قال: (أتحبه لعمتك؟) قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: (ولا الناس يحبونه لعماتهم) قال: (أتحبه لخالتك؟) قال: لا والله جعلني الله

فذاك، قال: (ولا الناس يحبونه لخالاتهم) قال: فوضع يده عليه وقال: (اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه) فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء. (1)

بهذا الأسلوب تحفظ حرمة المسلمين وتوجه الأنفس إلى الخير لا بأسلوب الإدانة و الحكم بالهلاك الذي يبعث على الإحباط و النفور.

ومن مزالق هذا الأسلوب في التعامل - أي أسلوب الإدانة والحكم بالهلاك - أنه يوصل أصحابه إلى حد الشعور بأنهم مفوضون عن الله تعالى في محاكمة عباده! وهذا الذي يرفضه ويبطله الإسلام بكل شدة وحزم، فليس لأي شخص أن يجعل لنفسه موقع المحاكم لعباد الله مهما علا شأنه في العلم وزاد إيمانه بالتقوى ليس له أن يجعل لنفسه مركزا فوقيا يستعلي به على الناس ومنه يحاكمهم ويحدد مصائرهم إن ذلك ليس لأحد إلا الله تعالى، وفي ذلك يأتي الرفض القرآني لهذه المواقع الإستعلائية، قال تعالى: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) آل عمران 79 .

إن الإستعلاء على عوام المسلمين وسرعة رميهم بالضلال ووعيدهم بالهلاك دون تقديم الواجب الكامل والعمل التام لتعريفهم الحق وترغيبه إليه إن هو غلا تسرع في الإدانة وحكم مسبق على أناس لا يعلم خاتمتهم إلا الله تعالى.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوجّ مرة ويستقيم أخرى). (2)

وقال ابراهيم النخعي: (لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا). (3)

(1) . مسند أحمد (256/5) (22265)

(2) . إحياء علوم الدين (181/2)

(3) . المصدر نفسه (181/2)

وهكذا يدفع هذا الأسلوب إلى سوء الظن وإتهام الآخرين لأدنى سبب، فلا يلتمس لهم المعاذير بل يفشي العيوب ويضخم الأخطاء حتى يجعل من الخطأ خطيئة ومن الخطيئة كفرًا!!

وقد يقول قائل إن الحكم بهلاك الناس إنما هو نتيجة لما يُرى منهم من انحراف وفشو للمعاصي و تقصير في طاعة الله!

والجواب: أن الحزن في التقصير في طاعة الله و الخوف على الناس من عواقب الانحراف أمر يدل على الإخلاص لله تعالى والحب لدينه و الغيرة على شريعته كما يدل على حب الخير للناس والرحمة لهم وهذا يستوجب مضاعفة الجهد و تقوية العزيمة على اتشال هؤلاء الغرقى من وحل المعاصي وإيصالهم إلى شاطئ الطهارة والعبادة و الطاعة، على أن لا يوصلنا الخوف على دين الله تعالى إلى حد إدانة كل مخطئ واتهام كل مخالف فنكون كمن يريد تغيير خطأ بخطأ آخر.

يقول ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فإذا زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه) (1)

ويعلق ابن القيم على كلام شيخه بقوله: (وهذا الخوف الموقع في اليأس إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها) (2)

كما أن الخوف على دين الله تعالى و الحزن على ما يظهر على سلوك الناس من انحراف لا يجب أن يوقعنا في خطأ الحكم عليهم كلهم ووضعهم جميعا في دائرة إدانة واحدة دون تمييز بين الضعيف و القوي و المبتدئ و المنتهي، و لا تمييز بين مراتب الأخطاء التي وقعوا فيها وقد فرق الله تعالى بين مراتب الناس من حيث طاعاتهم أو أخطائهم، فقال تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فاطر 32

(1) . مدارج السالكين (394/2)

(2) . المصدر نفسه (394/2)

وقد فسر العلماء الظالم لنفسه بأنه المقصر في بعض الواجبات و المرتكب لبعض المحرمات (1) ومع ذلك جعله الله تعالى داخلا ضمن الأمة المصطفاة التي أورثها الله تعالى الكتاب، وماحكم عليهم بالخروج من الملة أو توعدهم بالويل و الهلاك.

ومما يجدر التنبيه إليه أن الخوف على دين الله تعالى و السعي إلى إرجاع المخطئين إلى صراط الله المستقيم لا يكون بتحويل الناس الى ملائكة منزهين أو دفعهم كلهم إلى مصاف الأبرار و المقربين، و إلا تسرعنا في رميهم بالهلاك والخروج عن الدين، لأن ذلك إنكار لسنة من سنن الله تعالى في خلقه وهو معاملتهم على أنهم آدميون وبشر يصدر منهم الخطأ و الغفلة و التقصير، لأن القرآن الكريم لم يجعل من التقصير في الطاعة أو من الإلمام ببعض الذنوب موجبا للإدانة والوعيد والهلاك ولا عدّه مسقطا لإحسان المحسنين.

يقول الله تعالى: (و لله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أسأؤوا بما عملوا و يجزي الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) النجم 31 . 32.

وقد فسر ابن كثير معنى المحسنين و بين حقيقتهم بأنهم هم الذين (لا يتعاطون المحرمات والكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر، فإنه يغفر لهم ويستتر عليهم كما قال تعالى في آية أخرى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) النساء 31 وقال ها هنا (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) وهذا استثناء منقطع لأن اللمم ومحقرات الأعمال(2)

فإن المسلم الذي لم تصبح المعاصي و الذنوب خطأ ثابتا في حياته يجد في دين الله تعالى المتسع، لأن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء.

إننا قلما ننظر إلى الداخل، لأن الإنشغال بعيوب الناس والتشهير بها والإسقاط عليها لم يدع لنا فرصة التأمل في بنائنا الداخلي، والأثر يقول (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس) (3)

(1) . أنظر: تفسير ابن كثير (5/ 49 . 50)

(2) . المصدر نفسه (6/ 29)

(3) . أنظر: رسالة الألفة بين المسلمين للشيخ عبد الفتاح أبي غدة (8)

سؤال: ما الذي نفهمه من دفاع رسول الله صلى الله عليه و سلم عن حرمة مالك بن الدخشن ؟

والجواب عن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يقبل أن يذكر أصحابه رضوان الله عليهم واحدا من المسلمين بسوء لشبهة عرضت عليهم فيه ورد بحزم من اتهم ابن الدخشن بالنفاق و عدم حب الله و رسوله فقال له: (لا تقل ذلك)، فكانت شهادة الرجل بالتوحيد لله تعالى و الإقرار بنبوة رسول الله صلى الله عليه و سلم كافية لأن تجعل له حرمة عند رسول الله صلى الله عليه و سلم يزود بها بين أصحابه.

يقول ابن حجر رحمه الله: (من فوائد هذا الحديث أن العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى ينجي صاحبه إذا قبله الله تعالى، وأن من نسب من يظهر الإسلام إلى النفاق ونحوه بقريئة تقوم عنده لا يكفر بذلك و لا يفسق بل يعذر بالتأويل)⁽¹⁾

فكان عليه الصلاة و السلام يقدم لأصحابه الصورة الطيبة للمعاملة المثلى التي تحفظ حرمة المسلمين و ذلك بحسن الخلق الذي عده رسول الله من دلائل كمال الإيمان كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)⁽²⁾

وقد عرف أهل العلم حسن الخلق بأنه (كظم الغيظ لله و و إظهار الطلاقة والبشر إلا للمبتدع والفاجر والعفو عن الزالين إلا تأديبا وإقامة للحد، وكف الأذى عن كل مسلم ومعاهد)⁽³⁾

وما أثر عن رسول الله صلى الله عليه و سلم في يوم من الأيام أنه اعتمد أسلوب الفظاظة أو الفحش أو اللعنة لأنه جاء رحمة للعالمين تنفي كل أذية عن الناس أجمعين.

روى أنس رضي الله عنه قال: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا لعانا ولا سبابا)⁽⁴⁾، وقال الإمام النووي مؤكدا: (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا

(1) . فتح الباري (1/688)

(2) . سنن أبي داود . كتاب: السنة . باب: الدليل على زيادة الإيمان و نقصه (4/220) (4682)

(3) . جامع العلوم و الحكم لابن رجب الحنبلي (172 . 173)

(4) . صحيح البخاري . كتاب: الأدب . باب: ما ينهى من السباب و اللعن (10/569) (6046)

متفحشا ولا لعانا ولا منتقما لنفسه) (1) وبذلك أوصى القرآن الكريم فقال (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) آل عمران 159.

فإذا كان الله تعالى يوصي رسوله صلى الله عليه وسلم بالرفق واللين بالمؤمنين لأن الخشونة والقسوة تؤذي قلوبهم فينفضوا من حوله، فكيف القول معنا!؟

قال الإمام أحمد: (الناس يحتاجون إلى مداراة و رفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق و الردى، فجبب عليه نهيه وإعلامه لأنه يقال ليس لفاسق حرمة فهذا لا حرمة له) (2)

فخير الناس من ألهمه الله تعالى خلقا حسنا يحفظ به حرمة إخوانه، ويجنبه الفظاظة وإيذاء الخلق .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير) (3) وأي عقوبة أشد و أقسى من أن يحرم الإنسان الخير كل الخير!؟

وشر الناس من يعمد إلى إيذاء عباد الله ولو كان متسترا بستر الدين، لأن دين الله تعالى لم يرخص لأحد أن يؤذي الناس أو يجرحهم أو يسيء إلى حرمتهم.

فقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه) (4) فكيف يكون الخير في من يفر الناس منه اتقاء إذبته وضرره!؟.

أين يلجأ المسلم و هو يرى حرمة نهبا (لإخوانه!!) في العقيدة والدين ؟ وبمن يحتمي و كلمات الطعن و التجريح توجه اليه من (مسلمين!!) مثله!؟.

(1) . صحيح مسلم بشرح النووي (152/16)

(2) . الآداب الشرعية لإبن مفلح المقدسي (1149/1)

(3) . سنن الترمذي . كتاب: البر و الصلة . باب: ما جاء في الرفق (367/4) (2013)

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح

(4) . صحيح البخاري . كتاب: الأدب . باب: ما يجوز من اغتياح أهل الفساد والريب (578/10)

إن إيذاء مسلم عند الله تعالى عظيم و لو كان بكلمة واحدة لقوله صلى الله عليه و سلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق و المغرب) (1)

قال الإمام النووي: (معناه: لا يتدبرها و يفكر في قبحها و لا يخاف ما يترتب عليها و هذا كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم و نحو ذلك) (2)

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: (سب الناس و شتمهم مشافهة هو جناية على القلوب، و كذلك غيبتهم و ذكرهم بالقبيح .. و هو كل كلام لا يُحسن أن يقال له في وجهه، فإذا قاله في غيبة منه فقد إغتابه و كفارته أن يذكر له ذلك و يستحله، فإن كانوا جماعة فواحدا واحدا، و من مات منهم قبل ذلك فتدارك بتكثير الحسنات (3)

لقد كان رسول الله صلى الله عليه و سلم حريصا على صون حرمة أفراد أمته رحيمًا بها كالأم الرؤوم على أولادها، لا يقبل من مسلم - كائنا ما كان قربه أو موقعه - أن يؤدي إياه و لو بكلمة واحدة.

روى انس رضي الله عنه قال: بلغ صفة أن حفصة قالت: بنت يهودي ! فبكت فدخل عليها النبي صلى الله عليه و سلم و هي تبكي فقال: (ما يبكيك ؟) فقالت: قالت لي حفصة إنني بنت يهودي ! فقال النبي صلى الله عليه و سلم: (إنك لابنة نبي و إن عمك لنبي و إنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك ؟) ثم قال: (اتق الله يا حفصة). (4)

بهذا الأسلوب البديع كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يدعو إلى الحفاظ على حرمة المسلمين ويزجر إخوانه المخطئين في حقهم من أن يلحقوا أي ضرر بإخوانهم و اعتبر

(1) . صحيح مسلم . كتاب: الزهد و الرقائق . باب: التكلم بكلمة يهوي بها في النار (2290/4)

(2) . صحيح مسلم بشرح النووي (177/18)

(3) . الغنية (580/2)

(4) . سنن الترمذي . كتاب: المناقب . باب: فضل أزواج النبي صلى الله عليه و سلم (666/5) (3894)

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

من يفعل ذلك بعيدا عن رحمة الله فقال صلى الله عليه و سلم - عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . : (ملعون من ضارّ مؤمنا أو مكر به).⁽¹⁾

ومعنى ذلك أن (من أدخل على مسلم مضرّة في ماله أو نفسه أو عرضه بغير حق ضارّه الله، أي جازاه من نفس فعله وأدخل عليه المضرّة).⁽²⁾

و من دلائل الإنحراف عن منهج الله تعالى و عدم الرسوخ في دينه والإحاطة بأفاق شريعته، أن يبلغ المساس بجرمة المسلمين حد استباحة الدماء والأرواح!

وتحذيرا من هذا الأمر الكارثي على الأمة و الدين نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون حامل السلاح لمقاتلة إخوانه من أمته وأتباعه.

قال النووي: (من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاص، ولا يكفر بذلك، فإن استحله كفر).⁽³⁾

وبمثل ذلك يقول ابن حجر: (ومعنى الحديث: حمل السلاح على المسلمين و قتالهم بغير حق لما في ذلك من تخويفهم وإدخال الرعب عليهم، وكأنه كنى بالحمل على المقاتلة أو القتل... وعلى كل حال ففيه دلالة تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه)⁽⁴⁾

وقال الإمام الصنعاني: (أي ليس على طريقتنا وهدينا، فإن طريقتة صلى الله عليه وسلم نصر المسلم والقتال دونه لا ترويعه وإخافته وقتاله، وهذا في غير المستحل، فإن استحل القتال للمسلم بغير حق فإنه يُكفّر باستحلاله المحرم القطعي).⁽⁵⁾

(1) . سنن الترمذي . كتاب: البر و الصلة . باب: ما جاء في الخيانة و الفحش (293/4) (1941)

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب

(2) . سبل السلام (1591/4)

(3) . صحيح مسلم بشرح النووي (108/2)

(4) . فتح الباري (29/13)

(5) . سبل السلام (1228/3)

فكيف تسقط حرمة المسلم إلى حد يُستباح فيه دمه و القرآن الكريم يسد كل أبواب الترخيص في ذلك، إلا ما كان خطأ لا قصد للمسلم فيه لقوله تعالى: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ). النساء 92 .

قال ابن كثير: (ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه) (1)، لقد جعل رسول الله صلى الله عليه و سلم إيذاء المسلمين و سفك دمائهم من علامات الردة والكفر بدين الله، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض). (2)

فعلى المسلم أن يدرك جيداً أن الدفاع عن حرمة الدين لا تكون بانتهاك حرمة المسلمين وإيذائهم و استباحة دمهم لأن من صميم الدين حماية المسلمين والذود عنهم.

كما عليه أن يدرك أن أعظم ركيزة بنى عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم المجتمع الإسلامي هو " الإنسان المسلم " الذي دعا إلى احترامه و نهى عن إيذائه و لو بالإشارة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار) (3)

قال ابن حجر: (فيقع في حفرة من النار: هو كناية عن وقوعه في المعصية التي تقضي به إلى دخول النار) (4)

إن دين الله واسع و شريعته فسيحة فلماذا يضيق المسلم على نفسه بحرمة مسلم ينتهكها و قطرة دم يسفكها؟.

(1) . تفسير ابن كثير (133/2)

(2) — صحيح البخاري — كتاب: الفتن — باب: قوله صلى الله عليه و سلم: (لا ترجعوا بعدي كفاراً ...) (32/13) (7077)

(3) . صحيح البخاري . كتاب: الفتن . باب: من حمل علينا السلاح فليس منا (29/13) (7072)

(4) . فتح الباري (30/13)

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما) (1)

قال ابن العربي: (لفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تقي بوزره، والفسحة في الذنب قبول الغفران بالتوبة، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول). (2)

و قد عبر سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن هذا الإنحراف السيء "بالورطة" في الدين فقال: (إن من ورطات الأمور التي لا مخرج منها لمن أوقع نفسه فيها: سفك الدم الحرام بغير حلّه) (3)

ذلك أن كل الآثام يمكن التوبة منها إلا إزهاق الروح بغير حق، فكيف النجاة منها و هي من حقوق العباد العسيرة!؟

لقد حذر رسول الله صلى الله عليه و سلم من أن يتمادى المس بجرمة المسلمين الى حد سفك دمائهم فشدد في النهي عن ذلك مادام الإسلام ظاهرا على الإنسان ولو في آخر لحظة من عمره أو كان محتميا بأبسط شعائر الإسلام.

روى المقداد بن عمرو قال: قلت يا رسول الله إنني لقيت كافرا فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة و قال: أسلمت لله ! أقتله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

(لا تقتله) قال يا رسول الله فإنه طرح إجدى يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أقتله؟ قال: (لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلك قبل أن تقتله و أنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قال) (4)

(1) . صحيح البخاري . كتاب: الديات . باب: قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) (229/12) (6862)

(2) . فتح الباري (231/12)

(3) . صحيح البخاري . كتاب: الديات . باب: قوله تعالى: (و من يقتل مؤمنا متعمدا) (229/12) (6863)

(4) . صحيح البخاري . كتاب: الديات . باب: قوله تعالى: (و من يقتل مؤمنا متعمدا) (230/12) (6865)

قال ابن حجر: (ونقل ابن بطال عن المهلب معناه فقال: أي أنك بقصدك لقتله عمدا آثم كما كان هو بقصده لقتلك آثما، فأنتما في حالة واحدة من العصيان. وقيل: إن قتله مستحلا لقتله فأنت مثله في الكفر)⁽¹⁾

إنه لا شيء يشين علاقة المسلمين بعضهم ببعض سوى العنف والغلظة التي تفسد ذات بينهم، مع أن القرآن الكريم لم يذكر الغلظة والشدة إلا في موضعين:

الأول: في قلب المعركة و مواجهة الأعداء حيث توجب العسكرية الناجحة الصلابة عند اللقاء وعزل مشاعر اللين حتى تضع الحرب أوزارها، وفي هذا يقول الله تعالى: (يا أيها الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)⁽²⁾

الثاني: في تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها، حيث لا مجال لعواطف الرحمة في إقامة حدود الله تعالى، فقال: (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر).⁽³⁾

أما في علاقة المسلمين مع بعضهم فلا مكان للعنف ولا للإيذاء واستباحة الدماء.

قال ابن العربي: (ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق و الوعيد في ذلك، فكيف بقتل الأدمي؟

فكيف بالمسلم؟ فكيف بالتقي الصالح؟)⁽⁴⁾

(1) . فتح الباري (233/12)

(2) . سورة التوبة . الآية (123)

(3) . سورة النور . الآية (2)

(4) . فتح الباري (232 /12)

مقدمة	Erreur ! Signet non défini.
أولا . القضاء والقدر في ضوء السنة النبوية	3
المبحث الأول: تعريف القضاء و القدر	3
المبحث الثاني: الأحاديث الواردة في القضاء و القدر وأقوال أهل العلم في شرحها	4
ثانيا . حقيقة الكفر في ضوء السنة النبوية	12
المبحث الأول: تعريف الكفر لغة واصطلاحا	12
المبحث الثاني: الأحاديث الواردة في الكفر و أقوال أهل العلم في شرحها	13
ثالثا . الدعوة إلى الله في ضوء السنة النبوية	21
المبحث الأول: تعريف الدعوة لغة واصطلاحا	21
المطلب الأول: دعوة عامة الناس	22
الأحاديث الواردة فيها وأقوال أهل العلم في شرحها	22
المطلب الثاني: دعوة الزعماء والعلماء	35
الأحاديث الواردة فيها وأقوال أهل العلم في شرحها	35
رابعا: سمو الأخلاق الإسلامية في ضوء السنة النبوية	49

- المبحث الأول: تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً.....49
- خامساً: حرمة المسلمين في ضوء السنة النبوية:.....59
- قائمة بأسماء المصادر و المراجع.....79

قائمة بأسماء المصادر و المراجع

(أ)

- 1- ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان - محمد علي حماية . دار المعارف القاهرة . الطبعة الأولى . 1983.
- 2- أحكام أهل الذمة . ابن القيم الجوزية (الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر) - تحقيق الدكتور صبحي الصالح . الطبعة الأولى مطبعة جامعة دمشق .
- 3- إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي و شركاه .
- 4- الأخلاق و السير في مداواة النفوس - ابن حزم الأندلسي - مكتبة الشرق الجديد- بغداد.
- 5- الآداب الشرعية والمنح المرعية - الإمام شمس الدين محمد بن مفلح المقدسي - دار العلم للجميع - بيروت -1972
- 6- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - القسطلاني (أبو عباس شهاب الدين أحمد بن محمد) - دار صادر للطباعة و النشر - بيروت - لبنان .
- 7- أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية -الدكتور نور الدين محمد الطاهر اسماعيل بن يريج الجزائري - دار الكتاب الثقافي للطبعة و النشر و التوزيع - المملكة الأردنية الهاشمية - إربد 2005

8- أساليب الدعوة و التربية في ضوء السنة النبوية - زياد محمود العاني - جامعة بغداد
1990

9- أصول الدعوة - الدكتور عبد الكريم زيدان - مؤسسة الرسالة - بيروت - 1988

10- إنسانية الإسلام - مارسال بوازار - ترجمة الدكتور عفيف دمشقية - دار الأداب - بيروت -
لبنان - الطبعة الثانية

(ت)

11- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي (أبو العلي محمد بن عبد الرحمان المباركفوري -
مكتبة ابن تيمية - القاهرة - الطبعة الثالثة .

12- تفسير بن كثير (تفسير القرآن العظيم) الحافظ بن كثير - دار مكتبة الهلال - بيروت -
لبنان - الطبعة الأولى 1986

13- تفسير الطبري (جامع البيان عن بتأويل آي القرآن) تحقيق محمود محمد شاكر و
تحريح أحمد محمد شاكر - دار المعارف - مصر

14- التعريفات للجرجاني (علي بن محمد الشريف) - مكتبة لبنان - بيروت 1978

15- تهذيب اللغة - ابو منصور محمد بن أحمد الأزهرى - تحقيق أحمد بن العليم البردوني -
مراجعة الأستاذ علي محمد البجاوي - الدار المصرية للتأليف و الترجمة

(ج)

16- جامع العلوم و الحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم - زيد الدين أبو الفرج بن
أحم بن رجب الحنبلي - دار العلوم الحديثة - بيروت لبنان .

(خ)

17- خلق المسلم - محمد الغزالي - دار الشهاب - الجزائر

(د)

18- درء تعارض العقل و النقل - ابن تيمية - تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم - طبع جامعة

الإمام ابن سعود الإسلامية - الطبع الأولى - 1980

19- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية - محمد عبد الرحمان الراوي - الدار القومية للطباعة و

النشر - طبعة 1965

(ر)

20- رسالة الألفة بين المسلمين - و فيها : أمر الإسلام بالتوحد و الائتلاف و حطر التنازع

و التفرق عند الاختلاف ، من كلام شيخ الإسلام بن تيمية الحراني . اعتنى بها عبد الفتاح

أبو غدة - مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - طبع دار البشائر الإسلامية - بيروت لبنان

1996.

(س)

21- السفارات النبوية - اللواء الركن محمود شيت خطاب - مطبعة المجمع العلمي العراقي

1989

22- السيرة النبوية - ابن هشام - حققه وعلق عليه الدكتور همام أبو صعيك - مكتبة المنار -

الأردن - الطبعة الأولى 1988

23- السيرة النبوية الصحيحة - للدكتور أكرم ضياء العمري - مكتبة العبيكان - الرياض -

الطبعة الثانية 1996

24- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني - دار الحديث - القاهرة

1988

25- سنن الترمذي (الجامع الصحيح) محمد بن عيسى أبوبكر الترمذي تحقيق كمال يوسف

الحوت - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1987

26. سنن البيهقي الكبرى - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي - دار صادر - بيروت لبنان .

27. السنن الإلهية في الأمم و الجماعات و الأفراد في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان - دار إحسان للنشر و التوزيع .

(ش)

28. شرح الطحاوية في العقيدة السلفية للعلامة علي بن علي بن محمد بن ابي العز - أشرف على طبعتها الاستاذ أحمد شاکر (رحمه الله) - الناشر - زكرياء علي يوسف - مطبعة العاصمة - القاهرة .

29. شرح الزرقاني على موطأ مالك - دار المعرفة للطباعة و النشر - بيروت - لبنان .

30. شرح النووي على صحيح مسلم - دار الفكر - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية 1972

31. شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر و الحكمة و التعديل - الإمام ابن القيم الجوزية - تحقيق الحساني حسن عبد الله - دار التراث القاهرة .

(ص)

32. صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) الإمام محمد بن اسماعيل البخاري -

تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة 1987

33. صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري - تحقيق محمد فؤاد عبد

الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان - الطبعة الأولى 1955

34. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع و التفرق المذموم - للدكتور يوسف

القرضاوي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى 1990.

35. صفة الصفوة كمال الدين أبي الفرج بن الجوزي - دار السلفية .

(ع)

36. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للإمام محمود بن أحمد العيني - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

(ف)

37. فتح الباري شرح صحيح البخاري - للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - تحقيق عبد العزيز بن باز وترجمة محمد فؤاد عبد الباقي - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - الطبعة الأولى 1989

38. فتح النعم شرح صحيح مسلم موسى شاهين لاشين - دار الشروق - الطبعة الأولى 2002

39. الفروق - للعلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمان الصنهاجي (العراقي) - المطبعة التونسية .

40. الفصل في الملل و الأهواء و النحل - للإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري - مكتبة المثنى - بغداد - العراق .

41. الفواكه العديدة في المسائل المفيدة - للشيخ العلامة أحمد بن محمد المنقور التميمي النجدي - منشورات الكتب الإسلامية - دمشق - البعة الأولى 1960

(ق)

42. القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة - تصنيف وإعداد الطاهر أحمد الزاوي - دار الفكر - الطبعة الثالثة .

43. القضاء و القدر في ضوء الكتاب و السنة و مذاهب الناس فيه لعبد الرحمان بن صالح المحمود - دار الوطن الطبعة الثانية 1997

44. القضاء و القدر لعمر سليمان الأشقر - دار النفائس للنشر و التوزيع - الأردن - الطبعة
الثالثة عشر 2005

45. قواعد الأحكام في مصالح الأنام لأبي يوسف عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام دار
الشروق للطباعة - القاهرة. 1968

(ك)

46. كيف نتعامل مع السنن النبوية - معالم و ضوابط للدكتور يوسف القرضاوي - دار إحسان
- طهران - إيران .

(ل)

47. لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي - دار صادر - بيروت الطبعة الأولى
1955

(م)

48. المبسوط - الإمام السرخسي - دار المعرفة للطباعة و النشر - بيروت - لبنان

49. مجمع الزوائد و منبع الفوائد للحافظ الهيثمي - بتحريه الحافظين الجليلين العراقي و بن
حجر - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان .

50. مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحقيق عبد الرحمان بن محمد القاسم - الطبعة
الثانية - مكتبة ابن تيمية .

51. مختصر منهاج القاصدين - عبد الرحمان بن قدامى المقدسي - تحقيق علي حسين عبد
الحميد - مكتبة الشرق الجديد - بغداد - العراق

52. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين - ابن قيم الجوزية - دار الكتاب
العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1990

53. مسند الإمام أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي للطباعة و النشر - دار صادر للطباعة و النشر - بيروت - الطبعة الأولى 1969

54. المسؤولية الإعلامية في الإسلام - الدكتور محمد سيد محمد - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الأولى 1983

55. مصنف بن أبي شيبة - تحقيق أسامة بن إبراهيم بن محمد بن محمد - الفاروق الحديثة للطباعة و النشر - الطبعة الأولى 2008

56. مع الله - دراسة في الدعوة و الداعية - الشيخ محمد الغزالي - الطبعة الرابعة - دار الكتب الحديثة 1976

57. معجم البلدان - ياقوت الحموي - دار صادر للطباعة و النشر 1957

58. الموافقات في أصول الشريعة - أبو إسحاق الشاطبي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر -

(ن)

59. نصيحة الملوك - أبو حسن الماوردي - تحقيق و دراسة الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد - كلية الشريعة - جامعة أم القرى - مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية -

60. النهاية في غريب الحديث و الأثر - ابن الأثير - تحقيق طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية - بيروت - لبنان -

61. نيل الأوتار شرح منتقى الأخبار - محمد بن علي الشوكاني - دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع -

(هـ)

62. هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى ابن القيم الجوزية - مؤسسة مكة للطباعة و النشر - توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة 1396هـ

(ي)

63- اليواقيت و الجواهر في بيان عقائد الأكاير - الإمام عبد الوهاب الشعراوي - الطبعة
اليمنية - مصطفى البابي الحلبي وأخويه - مصر .